البحث
٢

شعر فضل العباسية جارية المتوكل

« دراسة وجمع وتحقيق »

إعداد

د / سالم عبدالخير عياد
مدرس الأدب العربى - كلية التربية - جامعة عين شمس

الدراسة

١. مولدها ونشأتها :

هى فضل الشاعرة العباسية ــ جارية الإمام المتوكل على الله الخليفة العباسى ، وهى جارية مولّدة من مولّدات البصرة [١] وأمها من مولدات اليمامة وبها ولدت ونشأت [٢] فى دار رجل من عبد القيس ، وباعها بعد أن أدبها فاشتريت وأهديت إلى المتوكل ، وكانت هى تزعم أن الذى باعها أخوها [٣] .

وذكر ابن الساعى أنها كانت تقول : " إن أمها عَلِقَتْ بها من مولى لها من عبد القيس ، وأنه مات وهى حامل بها ، فباعها ابنه ، فولدت على سبيل الرق ، وذكر عنها من جهة أخرى أن أمها ولدتها فى حياة أبيها ، فرباها وأدبها ، فلما توفى تواطأ بنوه على بيعها ، فاشتراها محمد بن الفرج الرُّخَّجى [٤] أخو عمر بن الفرج ، فأهداها إلى المتوكل " [٥] .

وروى صاحب الأغانى عن محمد بن خلف بن المرزبان ، قال حدثنى أحمد ابن أبى طاهر ، قال : كانت فضل الشاعرة لرجل من النخاسين بالكرخ يقال له حسنويه ، فاشتراها محمد بن الفرج أخو عمر بن الفرج الرخّجى ، وأهداها إلى المتوكل "[٦] .

ولم تذكر المراجع كلها شيئا عن نسبها من ناحية أبيها وأجدادها سوى أن

---

(١) جاء ذلك بالنص فى الأغانى ط بيروت ١٩ / ٣٠١ وفى نساء الخلفاء لابن الساعى /٨٤ والمستطرف للسيوطى وفى المنتظم لابن الجوزى ٥/ ٧٠٦ وفى أعلام الزركلى ٥/ ١٤٦ وفى الدر المنثور لزينب فواز ٢/ ٤٣٢ . لكن ابن شاكر الكتبى قال : كانت من مولدات اليمامة انظر فوات الوفيات ٢/ ٢٥٣ .

(٢) انظر أيضا المنتظم ٥/ ٧٠٦ ونساء الخلفاء / ٨٤ والأغانى ط بيروت ١٩/ ٣٠١ ولقد وهم ابن تغرى بردى فقال عن فضل (كانت من مولدات اليمامة وكذا أمها) انظر النجوم الزاهرة ٣/ ٢٨ .

(٣) رواية الأغانى ١٩ / ٣٠١ ونساء الخلفاء / ٨٥ واختصر الخبر كل من ابن الجوزى فى المنتظم ٥/٧٠٦ وابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣/ ٢٨ ، والزركلى فى الأعلام ٥/ ١٤٦ .

(٤) الرخجى : نسبة إلى رخّج بضم أوله وتشديد ثانيه ، وهى كُوره من كور فارس وقيل إنها من أعمال سجستان ، انظر الروض المعطار فى خبر الأقطار / ٢٦٨ .

(٥) هذا الخبر فى نساء الخلفاء / ٨٥ وقد نقله عن الأغانى ١٩/ ٣٠١ .

(٦) الأغانى ١٩/ ٣٠١ ، ٣٠٢ .

أبـاها رجل من بنى عبـد القيس أدبها وخرجهـا وباعها ، ولم تكن تعرف بعد أن اعتقت إلا بفضل العبديه [1] .

٢ . صفاتها الخلقية :

كانت فضل جارية سمراء [2] حسنة الوجه والجسم والقوام ماجنة من أظرف أهل زمانها [3] . قال ابن المعتز عن أحمد بن الحارث البغـدادى : " كـانت فضـل الشاعرة فى نهاية الجمال والكمال " [4] وقال ابن الجوزى " كانت سـمراء حسـنة الوجه والقد والجسم شكلة حلوة " [5]

٣ . صفاتها المعنوية :

قال صاحب الأغانى عنها : " إنها أديبةٌ فصيحةٌ ، سريعة البديهة ، مطبوعة فى قول الشعر " [6] . لم يكن فى زمانها أفصح منها ولا أشعر [7] قال ابن المعـتز : " كانت فضل الشاعرة فى نهاية الجمال والكمال ، والفصاحة واللسن وجودة الشعر ، ويجتمع عندها الأدباء ، ولها فى الخلفاء والملوك المدائح الكثيرة وكـانت تتشيـع ، وتتعصب لأهل مذهبها ، وتقضى حوائجهم بجاهها عند الملوك والأشراف " [8] ، كما كانت سريعة الهاجس أحسن خلق الله خَطًّا ، وأفصحه كلاما ، وأبلَغـه مخاطبـة ، وأثبته فى محاورة [9] .

ونستطيع أن نقسم صلتها بأبناء عصرها إلى أقسام عدة :

١ ــ صلتها بالخليفة المتوكل حيث تعدّ جاريته .

---

(١) السابق ، والأعلام ٥/ ١٤٦ والدر المنثور ٢/ ٤٣٢ .

(٢) فى نساء الخلفاء / ٨٥ .

(٣) الأغانى ١٩/ ٣٠١ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز / ٤٢٦ ونقل عنه عمر فروخ فى تاريخ الأدب العربى ٢/ ٣٢١.

(٥) رى الظما لابن الجوزى / ٥٠ .

(٦) الأغانى ط بيروت ١٨ / ١٥٧ .

(٧) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٨ .

(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز /٤٢٦ ونقل عنه عمر رضا كحالة فى أعلام النساء ٤/١٧٣ وفى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٣ .

(٩) الأغانى ١٩/ ٢٥٨ ونقل عنه السيوطى فى كتابه المستطرف من أخبار الجوارى /٥١ . وعن كل هؤلاء نقل الزركلى فى الأعلام ٥/ ١٤٦ .

٢ ــ صلتها بسّعيد بن حميد فهى حبيبته الأثيرة أو هو حبيبها الأوحد

٣ ــ صلتها بزوجها بنان بن عمرو .

٤ ــ صلتها بشعراء عصرها فى مجالس الخلفاء والندماء .

٥ ــ صلتها بجوارى القصر من مثيلاتها الشواعر .

١ . صلتها بالمتوكل :

سبق أن أهدى محمد بن الفرج الرخجى فضلا إلى المتوكل ، وعندها بدأت صلتها بالخلفاء فتروى معظم المصادر أنها حينما أدخلت عليه سألها الخليفة قائلا لها : أشاعرة أنت ؟ قالت كذا يزعم من باعنى ، ومن اشترانى فضحك المتوكل وقال أنشدينى من شعرك ، فقالت :

استقبلَ الملْكَ إمامُ الهدىٰ ... عامَ ثلاثٍ وثلاثينَا [1]

خلافةٌ أفضتْ إلى جعفرٍ ... وهْوَ ابْنُ سبْعٍ بعد عشرينَا

إنا لنرجُو يا إمامَ الهُدَى ... أن تملكَ النَاسَ ثمانينَا

لا قدّس اللهُ امرءًا لم يقلْ ... عند دُعَائى لك : آمينا [2]

أى إن الخليفة المتوكل إمام الهدى قد تولّىٰ الملْك سنةَ ثلاثٍ وثلاثين ومائتين من الهجرة وهو فى ريعان الشباب وعمره سبع وعشرون سنة ، وهى تتمنى على الله أن يحكم الناس ثمانين عاما أو يزيد وليؤمّنْ كل من سمع دعاءها له ، ولا قدس الله من لم يجب بآمين ..... وكان الخليفة المتوكل على الله اسمه جعفر أبو الفضل بن المعتصم ابن الرشيد ويبدو أن هذه الأبيات كانت فضل قد أعدتها قبل لقاء الخليفة لأن الاستنشاد أمر متوقع من الخلفاء دائما للقادمين الجُدُدِ عليهم من الشعراء والشواعر ولذا فقد استحسن المتوكل هذه الأبيات منها وأمر لها بخمسة آلاف درهم .

---

(١) تعنى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين من الهجرة (الأغانى ١٩/ ٣٠٢) .

(٢) هذا الخبر والأبيات الأربعة فى الأغانى ١٩/ ٣٠٢ ، والمنتظم ٥/ ٧٠٦ وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٥٣ وفى نساء الخلفاء لابن الساعى ٨٦ ــ ٨٧ وفى الدر المنثور فى طبقات ربات الحذور ٢/ ٤٣٢ وفى الإماء الشواعر للأصبهانى /٥٩ وفى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٥ وقد نقل عن ابن الساعى عمر كحالة فى أعلام النساء ٤/ ١٧٢ وفى شاعرات العرب ليموث / ٢٤٥ .

وبعد أن صارت جارية المتوكل كانت صلتها به صلة الجارية بمولاها ، قال المتوكل : واعدت فضلا البارحة أن تبيت عندى فسكرت سكرا شديدا منعنى من ذلك ، فلما أصبحت وجدت هذه الرقعة فى كمى وهى بخطها كتبت إليه تقول :

قد بَدَا شبهُكَ يا ... مولاىَ يحدُو بالظلام

فانتبهْ نقْضِ لبانا ... تِ اغتباقٍ والتئام

قبْل أن تفضَحَنَا عَوْ ... دة أرْواح النيام [1]

أى قم أيها الخليفة يا شبيه القمر .. انتبه نشرب الغبوق ليلا ونشبع لذة ومراحا قبل الصباح وصحوة النائمين . ولها مع المتوكل قصص أدبية طريفة حيث كانت تجلس فى مجلسه على كرسى تعارض الشعراء بحضرته [2] .

٢ . حبها لسَعيد بن حميد :

وفى مجالس المتوكل كان يجتمع الشعراء والكتاب ، ومن بينهم أبو عثمان سعيد بن حميد بن سعيد بن حميد بن بحر الكاتب ، وهو بغدادى " وكان كاتبا شاعرا مترسلا عذب الألفاظ ، مقدما فى صناعته ، عذب السرقة وكان يدعى أنه من أولاد ملوك الفرس وله ديوان رسائل وديوان شعر " [3] ، " كما كان سعيد حافظا لما يستحسن من الأخبار ، ويستجاد من الأشعار ، متصرفا فى فنون العلم ، ممتعا إذا حدث ، مفيدا إذا جولس ، وله أشعار كثيرة حسان " [4] .

ومعرف ما كان يدور فى مجالس الخلفاء وقصورهم فى العصور العباسية الأربعة حيث يجتمع الشعراء والغلمان والقيان والجوارى ، وفى قصر المتوكل

---

(١) الأبيات فى نساء الخلفاء لابن الساعى / ٨٦ نقلا عن كتاب الورقة لابن الجراح ، انظر نساء الخلفاء لابن الساعى / ٨٦ .

(٢) الظرفاء الخلفاء لابن الساعى / ٨٦ .

(٣) ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٨٠ .

(٤) مروج الذهب للمسعودى ٤/ ٦١ ، أخبار الجوارى للسيوطى / ٥٣ .

كان من الجوارى بنان وفضل ومحبوبة ، وكلهن شواعر [1] وقبيحه زوجته وجاريته.

ويبدو أن سعيد بن حميد التقى بهن أكثر من مرة فى مجلس المتوكل فعلق قلبه بفضل لحسنها وشاعريتها ... فبادلته حبا بحب ، وشعرا بشعر . أو أن سعيدا كان يجتمع بفضل فى مجالسها الأدبية حيث يتردد عليها الشعراء . قال ابن المعتز عن فضل وسعيد : " كانت فضل الشاعرة فى نهاية الجمال والكمال والفصاحة واللسن وجودة الشعر ، ويجتمع عندها الأدباء ، ولها فى الخلفاء والملوك المدائح الكثيرة ، وكانت تتشيّع وتتعصّب لهذه العصابة وتقضى حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والأشراف ، وكان من خبرها أنها عَشِقتْ سَعيد بن حميد الكاتب ، وكان سعيد من أشد الناس انحرافا عن آل الرسول عليهم السلام ، وكانت فضل فى الغاية والنهاية من التشيع ، فلما هويت سعيدًا انتقلت إلى مذهبه " [2] .

فهذا هو الأرجح أن سعيدا أحب فضلا من تردده على مجالسها ونما هذا الحب وقوى بينهما حتى انتقلت فضل إلى مذهب سعيد . أى انتقلت من التشيع لآل البيت إلى الانحراف عنهم مثل سعيد فى نصَبه وانحرافه عنهم ــ وكانت تلك ــ وما زالت ــ طبيعة الشعراء الذين يعاقِرون كئوسَ الرّاح ، وكذلك الغانيات .

ويبدو أن سعيدا وفضلا كتما حبهما أول الأمر ، ولم يصرحا به خشية الوشاة والكاشحين ، ولذا فإن فضلا كانت تبدى الود لهذا وذاك خوفا من أن ينقلب الوصل إلى صد ، ولهذا فهى لا تُصرّح باسْمه فى الغزَل ، روى صاحب الأغانى قال : كتبت فضل الشاعرة إلى سعيد بن حميد أيام كانت بينهما محبة وتواصل :

وعيشكَ لو صَرّحْتَ باسمك فى الهوىٰ ... لأقصرتُ عن أشياءَ فى الهزْلِ والجِدّ

ولكنّنى أُبْدِي لهَذا مَوَدّتِى ... وذاكَ وأخلو فيك بالبث والوجْدِ

مخافةَ أن يُغْرِى بنا قولُ كاشحٍ ... عدوًّا ، فيسعَىٰ بالوصَال إلى الصَّدِّ

---

(١) أنظر فى ذلك : الاماء الشواعر لأبى الفرج الأصفهانى ٤٩ ، ١١٧ ، ٢١ والمستظرف للسيوطى ١٢ ، ٥٠ ، ٦٣ .

(٢) أنظر طبقات الشعراء لابن المعتز / ٤٢٦ ، والأعلام للزركلى ٥/ ١٤٦ .

فكتب إليها سعيد يقول :

تنامينَ عن ليلى وأسهرُهُ وَحْـــدِى وأنهىٰ جُفونى أن أبثكِ ما عنْـدى

فإن كنتِ لا تدرينَ ما قـــد فعلْتِـــهِ بنا فانظرِى ماذا على قاتلِ العمْدِ [1]

فسعيد أيضا يدارى هواه ، ولا يبثها ما عنده ، ولكن عليها أن تتحمـــل تبعـــة قتلـــه عمدا ، فالعمد قود .

وهذه المراسَلة الشعرية تجرى على نهج عُمر بن أبى ربيعة مع صُويْحباته فى العصر الأموى ، فهو أول من بدأ غزل المراسَـــلات الشعريـــة علـــى منـــوال المعارضات حيث يتفق النصان وزنا وقافية .

كما أن فكرة القتل العمد فى قاموس الغزل مبتدؤه أيضا من العصر الأموى حيـــث كان الغزلُ العذْرى ، يقول يزيد بن الطثرية فى هذا المعنى :

سلى هل أحلَّ الله من قتْـلِ مسْـلِمٍ بغيرِ دَمٍ ؟ أم هـــل علـــىَّ قتيـــلُ ؟

فلا تحْملى ذنْبى وأنـــتِ ضعيفَـــةٌ فحمْل دَمى يومَ الحسابِ ثقيـــلُ [2]

ويزداد حب فضل وسعيد يوما بعد يوم وتصر فضل على كتمان حبها عـــن الناس جميعا ، فلا تشكو حبيبها ولا تبوح به ولو دارت الكأس وسكرت ، وتعبر عن هذه المعانى حينما أمرتها جارية أخرى فى القصر اسمها قبيحة أن تقـــول للخليفـــة المتوكل على لسانها شيئا من الشعر فتكتب ، ولا أظنها إلا معبرة عن نفسها ، ومـــا يعتمل فى قلبها هى : فتقول :

لأكتمنَّ الذى فى القلْب من حُـــرَق حتى أموتَ ولم يعلمْ بـــهِ النـــاسُ

ولا يُقَالُ شكاَ مـــن كـــانَ يعشقُـــه إن الشكاةَ لمنْ تهوىٰ هى اليـــأسُ

ولا أبوحُ بشـــىءٍ كنـــتُ أكتمُـــهُ عند الجلوسِ إذا ما دَارت الكاسُ[3]

---

(١) الأغانى ١٩/ ٣٠٦ .

(٢) ديوان يزيد بن الطثرية ٩٨ .

(٣) الأغانى (دار الكتب) ١٠/ ٢١٥ .

فلما قرأ المتوكل هذه الأبيات أعجب بها ، وأمر لها بعشرين ألف درْهم ، ولعلىّ بن الجَهم بعشرينَ ألف درْهم ، ودخل إلى قبيحة فعرّضاها .

ويستمر الحب بين العاشقين ، ويزداد يوما بعد يوم ، وتتردد على قصر الخليفة المتوكل ، يَروى صاحبُ الأغانى عن ذلك خبرا قال فيه :

كانت فضل الشاعرة من أحسن الناس وجْهاً وخَلْقا ، وخُلقا ، وأرقّهم شعرًا فكتب إليها بعض من كان يجمعُه وإياها مجلسُ الخليفة ، ولا تطلعه على حُبّها له :

ألا ليتَ شعْرى فيكَ هل تذكريننى ... فذكْراكِ فى الدنيا إلىَّ حبيبُ

وهل لى نصيبٌ فى فؤادكَ ثابتٌ ... كما لكَ عنْدى فى الفؤادِ نصيبُ

ولستُ بموصُولٍ فأحْيَا بزَوْرة ... ولا النفسُ عند اليأس عنكَ تَطيبُ

قال : فكتبت إليه :

نعمْ وإلَهى إننى بكَ صَبَّة ... فهل أنتَ يا مَنْ لا عدمْتُ مثيبُ

لمن أنت منهُ فى الفؤادِ مُصَوَّر ... وفى العَيْن نُصْبَ العيْن حينَ تَغيبُ

فثقْ بودادٍ أنتَ مُظْهرُ مثْله ... على أن بى سُقْماً وأنتَ طبيبُ (١)

وهذه مراسَلةٌ شعرية أخرى محبوكةٌ فنيا ، فهذا العَاشق يطلبُ مجرّد الذّكْر وموقعاً فى فؤادِها كما أن لها مكانةً فى قلْبه ، ثم هو يطْلب الوصَال ، فلا تطيبُ نفسُه مع اليأس ، وعلى عَادة فَضْل فى بثّ حبها وصَبابتِها تخبرُه أنه ملءُ قلْبها ونصْبَ عينها فى مغيبه ومْحضَره ، حتى إنه لطبيبُ دائها .

وأغلب الظن أن هذا الذى كان يجْمَعُه وإياها مجلسُ الخليفة هو سَعيد بن حميد ، فهذه الأبيات الثلاثة هى من نسْج شعرِه فنيا أى من حيث المعنى والأسلوب والصياغة .

ويستمر حبهما ــ على عادة العشاق ــ مع تصوير آلام الفراق والصّدّ ، وأثر البعاد على القلوب من شُغل شاغل ، وشكوى دائمة . ويروى صاحب الأغانى

---

(١) الخبر والأبيات فى الأغانى (بيروت) ١٩/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

أيضا خبرا حدثه به محمد بن العباسى اليزيدى قال : كتب بعض أهلنا إلى فضل الشاعرة :

أصبحتُ فرْدًا هائمَ العقْل ... إلى غزال حسن الشكْل

أضنىٰ فؤادى طولُ عَهْدى به ... وبعدُه منّى ومنْ وَصْلى

مُنْيةُ نفْسى فى هوىٰ فضْل ولو ... أنْ يجمع الله بها شَمْلى

أهْواكِ يا فضْلُ هوىً خالصًا ... فما لقلْبى عنكِ من شُغْل

قال : فأجابته :

الصبرُ ينقصُ والسَّقام يزيدُ ... والدار دَانيةٌ وأنتَ بعيدُ

أشكوكَ أم أشكُو إليكَ فإنّهُ ... لا يستطيعُ سواهُما المجْهودُ

إنى أعوذُ بحرمَتى بكَ فى الهَوىٰ ... منْ أنْ يُطَاعَ لديْكَ فىَّ حسُودُ [1]

فبعض أهل اليزيدى هذا يكتب إلى فضْل ليشرحَ فى رسالتِه هواهُ وضنَى فؤادِه ، بسبب بِعادها عنه متمنيا أن يجمعَ الله شملَهما ، ويقال إنّ فضْلاً فى هذه الآونة كانت عليلةً فتردّ عليه وأثرُ المرضِ بادٍ على شِعرها ، فقد نفَدَ صبرُها ومرضَتْ بسبب بعادِه رغْم قربِ الدارِ فهى تشكوهُ إلى نفسِه مؤكدة أنه لن يحظى بحبّها وقلبها أحدٌ سواهُ من الحاسِدين .

ويبدو أن صِلَة فضلٍ بقصْر الخليفةِ كانتْ تُفْسِد عليها وعلى سَعيد فى بعض الأحيانِ متعةَ اللقاء ، ولذةَ الحبّ ، فقد زارتْ فضل سعيدًا ليلة ، وكانا على موعد سبق بينهما ، وما أنِ التقيا حتى جاءتْ جاريتُها مبادرة تعْلمُها أن رسولَ الخليفة قد جَاء يطلبُها ، فقامتْ مبادِرة إليه وضَنَّ الزمانُ بها ، فلما كان الغدُ كتَبَ إليها سعيدٌ قائلا :

والدمعُ ينطق للضمير مصدّقًا ... قولَ المُقِرّ ، مُكَذّبًا للجاحِد [2]

---

(١) السابق ١٩/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤

(٢) الأغانى (بيروت) ١٩/ ٣١٠ .

ضن الزمـــان بـــها فلمـــا نلْتُـــها ورَد الفـــراقُ فكـــانَ أقبـــحَ وَارِدِ

أى أن الزمان قد بخِل بلقائها ، وما أن نلتُها حتى كان الفراق فنطقَ الدمعُ بمـــا فـــى الضمير ، مقرا بما فى القلْب ، مكذبا الجحودَ والفراقَ .

ومرة أخرى تزوره فضلٌ فجأة ــ بلا موْعد سابق ــ على غَفْلَـــة ، فوثـــب إليها ، وسلّم عليها ، وسألها أن تقيم عنده ، فقالت : قد جاءَنى وحياتِك رسول مـــن القصْر ، فليس يمكننى الجلوس ، وكرِهْتُ أن أمر ببابكَ ، ولا أراكَ ، فقال سعيد من وقته على البديهة :

قَربْتِ ، ولا نرجُو اللقاءَ ولا نـــرَى لنا حيلـــةً يُدْنيـكِ منـــا احتيالُـــها

فأصْبَحْتِ كالشمسِ المنيرةِ ضوؤُها قريبٌ ولكنْ أيـــن منـــّى منالُـــها

كظَاعِنةٍ ضَنّتْ بها غربـــةُ النـــّوى[1] علينا ، ولكـــنْ قـــد يُلِـــمُّ خيالُـــها

أى لا حيلة لنا الآن فى بقائك ، فما أشبهك بالشمس تضئ الكون بضوئها ولكـــن لا ينالها الإنسان ، فإن قَرُبتْ آمال اللقاءِ عَوّق الزمن ذلك ، ولكن ستظل أمنيةً فربمـــا جادَ بها الزمان ، وتحوّلَ عنا البعاد .. وعلى عادة العشاق يشوب الحبَّ شـــئٌ مـــن التغاضُب ليحلوَ العتابُ والتصافى والوُدّ ، وقد تغاضَب سعيدٌ وفضلٌ أياماً ، فكتـــب إليها سَعيد عتابا رقيقا قال فيه [2] :

تعَـــالىْ نُجَـــدّدُ عـــهدَ الرضـــا ونصفحُ فى الحبِّ عمّـــا مضَـــى

ونَجْـــرى علـــى سُـــنة العـــاشِقينَ ونضمَنُ عنـــّى وعنـــكِ الرّضَـــا

ويبـــذُلُ هـــذا لـــهذَا هـــواهُ ويصـــبرُ فـــى حُبّـــه للقضَـــا

ونخضـــعُ ذلاًّ خضـــوعَ العبَيـــدِ لمولـــًى عزيـــزٍ أذا أعْرضَـــا

فـــإنى مُـــذْ لـــجّ هـــذا العتـــابُ كـــأنىّ أبطنْـــتُ جمـــرَ الغضَـــى

---

(١) الأغانى (بيروت) ١٨/ ١٦١ .

(٢) الأغانى (بيروت) بتحقيق الغرباوى ١٨/ ١٦٠ ــ ١٦١ ، وتاريخ الأدب لعربى لعمر فروخ ٢/ ٣٢٢ وأشعار سعيد بن حميد / ٢٤٥ .

فسعيد يطلب تجديدَ عهدِ الحبّ والصفْح عن كل ما مضى من الهجر والـــدلال .... وهنا يكون رضا الأحبة ، والصبر على قضاء الله وقدره إن كان مقدراً لنا الفـــراق بعد ذلك ، فإن الشاعر يتقلب على جمر الغضى منذ لج به عتبـــه ..... ومـــا إن قرأت فضل هذه الأبيات حتى ذَهبتْ إليه وصالحتْهُ .

وتظل تجربة الحب بينهما تمضى بين الارتفاع والانخفاض ، تتأرجح بيـــن الرضا والسخط والصواب والخطأ ، والسرور والغضب .... حتى يعبر عـــن ذلـك سعيد وتروى الأبيات لفضل أيضا .... والأرجح أنها لسعيد حيث تقطع الشك كلَّ منْ " راضية ــ ومغتبط " ، يقول :

مـــا كنـــتُ أيـــام كنـــتِ راضيـــةً ... منـــّي بـــذاكَ الرِّضَـــا بمغْتَبِـــطِ
علْمـــًا بـــأن الرضَـــا ســـــيتبعُه ... منـــكِ التمنّـــى وكـــثرةُ السّـــخَطِ
فكـــلُّ مـــا سَـــاءنى فعَـــنْ خُلُـــقٍ ... منكِ ، وما سرَّنى فعَـــنْ غَلَـــطِ [1]

فسعيد لم يغتبط برضاها خوفاً من سُخْطها ، ولم يُسَرَّ بحبّهِ إلاّ عنْ طريـــقِ الخطـــأ ويقارن الحصرى القيروانى بين سعيد فى هذا المعنى أو هذه الأبيات الثلاثة ، وغيره من شعراءِ الغَزَل قبله مثل أبى العباس الهاشمى والعباس بن الأحنف وغيرهما .

ولما مرضت فضل عاتبت صاحبها سعيدًا فى تأخره عن عيادتها ، وقـــالتْ أبياتها الدالية الثلاثة : الصبرُ ينقصُ والسقامُ يزيدُ .... (الأبيات) ثم قالتْ له أنا يـــا أبا عثمانَ فى حالِ التلف ، ولم تعدْنى ، ولا سألتُ عن خبَرى ، فمضَىٰ إليها ، فسأل عن خَبرها ، فقالتْ : هو ذا أموتُ وتستريحُ منّى ، فأنشأ يقول :

لامتِّ قبْلىَ ، بل أحْيَا وأنتِ معـــًا ... ولا أعيـــشُ إلـــى يـــوم تموتينَـــا
لكنْ نعيشُ بمـــا نـــهوىٰ ونأملُـــهُ ... ويُرْغِـــمُ الله فينـــا أنْـــفَ شَانِينَـــا
حتـــى إذا قَـــدَّر الرحْمَـــٰن مِيتَتَنَـــا ... وحَان من أمْرِنا ما ليـــسَ يعدُونـــا
متْنا جميعاً كغصْنَـــىْ بَانَـــةٍ ذبُـــلا ... من بعْد ما نَضَّرا واسْـــتوثَقَا حينـــا

---

(١) الخبر والأبيات فى زهر الآداب للحصرى القيروانى ٢/ ١٠٣٤ .

ثم السلام علينا في مضاجعنا حتى نعودَ إلى ميزانِ مُنشينا [1]

فسعيد هنا يجنح به خياله جنوحا جميلا ، حتى يدعو الله ألا تموت حبيبته قبله ، بل يحيا هو وهى معا حتى يموتا معا أيضا ، ثم يكون السلام عليهما فى قبريهما حتى يبعثا يوم الحشر والميزان . وهذه أمنية شاعر عاشق صادق فى تجربة حبه صدقا عاطفيا وصدقا فنيا .

وهذه الأمنية عبَّر عنها من قبل شعراء الغزل العذرى فى العصر الأموى أكثر من مرة ويظل سعيد سادرا فى أمنياته الغرامية لفضل ، وكذلك تظل فضل هائمة وجدا به ، ويشكو كل منهما شدة شوقه إلى الآخر ، ومما يرويه صاحب الأغانى فى ذلك : أن سعيدا كان فى مجلس الحسن بن مخلد ، إذ جاءه الغلام برقعة فضل الشاعرة تشكو فيها شدة شوقها ، فقرأها وضحك ، فقال له الحسن بن مخلد : بحياتى عليك أقرئنيها فدفعها إليه فقرأها ، فضحك ، وقال له : قد وحياتى ملحت ، فأجب ، فكتب إليها [2] :

يا واصفَ الشوق عنْدى من شواهده قلبٌ يهيمُ ، وعينٌ دمعُها بكفُ

والنفسُ شاهدةٌ بالودّ عارفةٌ وأنفسُ الناسِ بالأهواءِ تأتلفُ

فكنْ على ثقةٍ منّى وبيّنةٍ أنى على ثقةٍ من كلّ ما تَصِفُ

فسعيد يبادلها حبا بحب وشوقا بشوق ، وشواهد حبه قلب هائم وعين واكفة بالدموع ونفس شاهدة بالود ، وإنى لواثق من حبك لى وكل ما تصفين من شوق . وقد بدأ سعيد بكلمة يا واصف الشوق .... ولذا فهو فى آخر البيت الثالث خاطب بصيغة المذكر قائلا من كل ما تصف ....

وما زال سعيد يستعطف فضلا ويصف شوقه إليها وتجنيها عليه ويسألها الرحمةَ بنفسه من الظلْم والهجْر ، والعطف عليه ، يقول :

---

(١) انظر شعر سعيد بن حميد فى شعراء عباسيين / ٢٧٧ ــ ٢٧٨ .

(٢) أنظر الأغانى (بيروت) بتحقيق الغرباوى ١٨/١٦٤، وأشعار سعيد فى شعراء

يا أيـــها الظـــالمُ مـــا لـــى ولَـــكْ أهكـــذا تـــهجرُ مـــنْ واصَلَـــكْ

لا تُصْرفُ الرحمـــةُ عـــن أهْلِـــها قد يعطفُ المولىٰ على مَنْ ملَـــكْ

ظلمـــت نفسًـــا فيـــكَ علقتـــها فـــدارِ بـــالظلْم علـــىَّ الفلَـــكْ

تبارَكَ اللهُ ... فمـــا أعلَـــم اللـــ ـــهَ بما ألقَـــىٰ ، ومـــا أغْفلَـــكْ [1]

فتبارك الله سبحانه ، ما أعلمه بسعيد وبما يلقاه من ويل وهجر وظلم ، وما أغفل فضلا عن كل هذا .

ويظل سعيد مخلصا لفضل إخلاصا شديدا ، دافعا عن نفسه مظنة الخلف أو التغير ، فيحدثنا عبد الله بن طالب الكاتب ، قال : قرأت رقعة بخط سعيد بن حميد إلى فضل الشاعرة يعتذر إليها من تغير ظنته به ، وفى أخرها :

تظنون أنـــى قـــد تبدّلْـــتُ بعدكـــمْ بديلاً وبعض الظنّ إثـــمٌ ومنكَـــرُ

إذا كانَ قلْبى فـــى يديـــكَ رهينـــةً فكيف بلا قلب أصافى وأهْجُرُ؟ [2]

أى إنه لم يتغير قط حيث إن قلبه فى بيتها رهينة ، فكيف يحب غيرها أو يـــهجرها وهو بلا قلب إن هذا ظن وبعض الظن إثم .

وتمر الأيام ، وكأن البيتين السابقين قد عملا عملاً فى نفسية فضل وأولهما خاصة :

تظنون أنـــى قـــد تبدلـــت بعدكـــمْ بديلا وبعضُ الظن إثمٌ ، ومنكَـــرُ

وتساور الشكوك والظنون قلبَ الحبيبة ، وقد بلغَـــها أن صاحبَـــها عشِـــق إحـــدى الجوارى ، من القيان .... فتقول له [3] :

يـــا حسَـــن الوجـــهِ ســـئَ الأدبَ شبْتَ وأنـــتَ الغـــلامُ فـــى الأدَبِ

---

(١) أنظر : الأغانى بيروت بتحقيق الغرباوى ٨ / ١٦٣ ، وشعراء عباسيون / ٢٥٥ .

(٢) أنظر : الأغانى (بيروت) بتحقيق الغرباوى ١٨/ ١٥٨ ، وعنها نقل جامع أشعار سعيد ابن حميد فى الشعراء العباسيين / ٢٣٥ .

(٣) الأبيات لفضل فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦ ــ ٤٢٧ ونقل عنه عمر فروخ فى تاريخ الأدب العربى ٢/ ٣٢١ .

ويحك إن القيانَ كالشرَك الـ ... ـمنصوبِ بين الغرُور والكَذِبِ
لا يتصدّيْنَ للفقير ... ولا ... يتْبعَنْ إلا مواضعَ الذّهَبِ
بينا تشكّىٰ إليكَ إذ خرجَتْ ... من لحظاتِ الشكوىٰ إلى الطلَبِ
تلحَظ هذَا وذَا وذاك وذَا ... لحْظَ محِبّ بعيْن مكتَسِبِ

ففضل هنا توبخ صاحبها سعيدا ، بينما هى غيور عليه ، فهى تشرح له طبع القيان من غرور وكذب وتتبع لغنىٰ الأغنياء من ذهَب وغيره ، فتشكو الجارية وتطلب ، وتلاحظ كل الناس بعين المنفعة والفائدة ، فعليه أن يرعوى عن غيه وسوء أدبه ، فقد شاب وكبر .

ويصدق ظنُّ فضل فى صاحبها ..... ويروى صاحبُ الأغانى أن سعيدًا كان يهوى مظلومة جارية الدَّقِيقى ، ثم هجَرها ، فكتبتْ إليه تعاتبُه وتتشوقُ إليه ، فكتبَ إليها :

أمْرِى وأمرُك شئٌ غيرُ متّفِقِ ... والهجرُ أفضلُ من وصْل على ملَقِ
لا أكذبُ اللهَ ما نفْسى بسَالِيةٍ ... ولا خليقةُ أهْلِ الغدْر من خُلُقِى
فإن وثقتِ بودّ كنتُ أبذلُه ... فعاودِى سوءَ ظنٍّ بى ولا تَثِقِى[1]

فواضح هنا أن سعيدا يرفض حب مظلومة رفضا تاما ويفضل الهجر على الوصل الكاذب فلم يكن يوما ما كاذبا فى خلقه أو وده ، وعليها إذن أن تسحب ثقتها فى وده ، فما كان ذلك حبا .

ويروى أنه أيضا أحب هبةَ المغنية ، فهجرتْه ، وسألتْه ألا يكلمَها فقال :

اليوَم أيقنتُ أن الهجرَ متلفَةٌ ... وأن صاحبَه منهُ علىٰ خطَرِ
كيف الحياةُ لمن أمْسَى على شَرَفٍ ... من المنيةِ بين الخوْف والحَذَرِ
يلوم عينيه أحياناً بذنبهما ... ويحملُ الذنبَ أحياناً على القَدَرِ

(١) الأغانى (الهيئة) تحقيق الغرباوى ١٨/ ١٦٢ .

تنأوْنَ عنه ، وينأى قلبُـــه معكـمْ فقلبه أبـــدًا منـــه علـــى سَفَرِ [1]

فوثبت إليه هبة المغنية وقبلت رأسه وقالت : لا أهجرك والله أبدا ما حييت .

٣ . صلتها ببَنان بْن عَمرو المغنّى :

وبينما تسير قصة حب سعيد سيرا طبيعا بين الرضا والعتاب ، إذ تدب روح الغيْرة بين الحبيبين ويتحول قلب كل منهما تحولا طفيفا حيث يروى صاحب الأغانى قصة ذلك فيقول : أخبرنى أبى قال : وحدثنى أبى قال : افتصدَ سعيد بـــنُ حُميـد ، فسألتنى فضل الشاعرة ، وسألتْ عريبَ أن تمضىَ إليه ، ففعلنا ، وأهدت إليه هدايا ، وكان منها ألفُ جَدْيٍ وحَمَل ، وألف دَجاجة فائقة ، وألفُ طبقِ ريحَـــانٍ وفاكهـةٍ ، ومع ذلك طِيب كثيرٌ وشراب وتحَف حِسَان ، فكتـــب إليـــها سَـعيد : إن ســـرورى لا يتم إلا بحضورِكِ ، فجاءتْه فى آخر النَّهار ، وَجلسْنا نشْـــربُ فاســـتأذنَ غلامَـهُ لِبنَان فإذنَ له ، فدخل إلينا ، وهو يومئذ شـــابٌّ طريـــرٌ ، حسَـــن الوجـــه ، حســـن الغِناء ، نظيفُ الثياب ، شكِلٌ ، فذهب بها كل مذْهَـــب ، وأقبلـــتْ عليـــه بحديثِـــها ونظرِها ، فتشمَّزَ سعيد واستطير غضَبا ، وتبين بنانٌ القصةَ ، فـــانصرفَ ، وأقبـــل عليها سَعيد يعذلُها ويؤنّبها ساعةً ، ثم أمسَكَ ، فكتبتْ إليه :

يـــا مـــنْ أطَلْـــتُ تفرُّسِـــى فـــى وَجْهِـــهِ وتنفُّسِـــى

أفديـــكَ مـــنْ متدلِّـــلٍ يزْهَـــى بقتْـــل الأنفُـــسِ

هيْنـــى أسَـــأْتُ ومـــا أسَـــأْ تُ ، بلـــى أُقِرُّ أنَـــا المُسِـــى

أحْلفتنَـــى ألا أُســـا رِقَ نظـــرةً فـــى مجْلِســـى

فنظـــرتُ نظـــرةَ مخْطِـــئٍ أتْبعتُـــها بتفَـــرُّسِ

ونسـيتُ أنـــى قـــدْ حلفْـــ ـــتُ فمَـا عقوبـةُ مَـنْ نسَـى

---

(١) السابق ١٨/ ١٦٣ ، وفى مجموع شعر سعيد فى " شعراء عباسيون / ٢٨٧ ــ الشرف : المكان العالى والقرب من الخطر .

فقام سعيد ، فقبّلَ رأسها ، وقال : لا عقوبة عليه ، بل نحتمل هفواتـــه ، ونتجـافى عن إساءته ، وغنت عريب فى هذا الشعر هزجا ، فشربنا عليه بقيـة يومنـا ، ثـم افترقنا ، وأثر بنان فى قلبها، وعلقت به، فلم تزل حتى واصلته ، وقطعت سعيدا [1] .

فهذه القصة على ما فيها من مبالغات واضحة فى مسألة الهدايا التى حملتها فضل إلى سعيد ... إلا أنها تدل على تحول قلْب فضْل قليلا عن سعيد إلى بنان بـن عمرو ، وقد كانت فيه دواعى الإغراء للجوارى ، فقد كان يومذاك شابا طريـرا ، حسَن الوجه والغناء ، نظيف الثوب شَكِلا ، فذهب بنان بقلب فضل كـل مذهـب ، فأقبلت عليه بحديثها ونظرها ، حتى استطار سعيد غيرة وغضبان وراح يؤنبـها ، فاعتذرت إليه شعرا جميلا مؤداه أنها نسيت فتأملت هذا الشاب ، وتفرسته بعينـها ، فما عقوبة النسيان ويعفو سَعيد عنها ويشربُ بقيةَ يومِه ، وتنصرفُ فضْـلُ ولكـنْ بعد أن أثّر بنان فى قلْبِها وينمو هذا الحب الجديد شيئا فشيئا حتى تواصلَه وتتحـول عن سَعيد إليه .

ويروى صاحب الأغانى عن هذا التحول فى الهوى خبرا عن جحظة قال : حدثنى ميمون بن هارون قال : لما عشقتْ فضلُ الشاعرةُ بنانَ بنَ عمْرو المغنـى ، وعدلتْ عن سَعيد بن حُميد إليه أسف عليها ، وأظهرَ تجلّدًا ، ثم قال فيها :

قالوا تعزَّ وقد بانُوا فقلـتُ لـهُم : بانَ العزاءُ على آثـار مَـنْ بانَـا

وكيـفَ يملـكُ سـلواناً لحبـّـهُم مَنْ لم يطقْ للهوىٰ سترًا وكتمانَـا

كانتْ عزائمُ صبْرى أستعينُ بـها صارتْ علـىَّ بحمْـد الله أعْوانَـا

لا خيرَ فى الحُب لا تبدو شَواكلُـه ولا نَرىٰ منه فى العينيْن عُنْوانَا [2]

فسعيد يأسف على بعد فضل ، فلا يطيق لها سلوانا وعزاء ، ولا يقوى على التصبر فقد بان عن حبيبه ، فلا يرى آثار الحب وشواكله فى أعينهما .

وتضطرم أمـواج الحـب الجديد فى قلب فضل ، ويضطرب حبها لبنان بن

---

(١) الأغانى تحقيق عبد الكريم الغرباوى ١٨/ ١٦٧ ــ ١٦٨ .

(٢) الأغانى (السابق) ١٨/١٦٤ ، ومجموع شعر سعيد فى "شعراء عباسيون"/ ٢٧٦،٢٧٧ .

عمرو أيضا ويتأرجح بين الرضا والسخط ، كما مر فى تجربة حبها الأولى مع سعيد . ويحدثنا أبو الحسن جحظة ، قال : حدثنى على بن المنجم ، قال : غضب بنان على فضل الشاعرة فى أمر أنكره عليها ، فاعتذرت إليه فلم يقبل معذرتها ، فأنشدتنى لنفسها فى ذلك :

يا فضْلُ صبرًا إنها ميتَةٌ ... يجرعُها الكاذبُ والصَادقُ

ظنّ بنانٌ أننِى خنْتُهُ ... رُوحى إذَنْ من بدَنى طَالِقُ [1]

ففضل تلوذ بالصبر ، وهى كأنها مُقْدمة على الموْت ، فالموتُ وتجرّع كأسه فى غضَب بنان عليها وهجْره لها ، فإن ظن أنها خانتْه ، فالموتُ كل الموت لها ، فإزْهاق روحِها من بدَنها أهون عليها من غضْبة بنان عليها وشكه فيها .

خلاصة القول فى تجْربة حُب فضْل وعشّاقها : أنها كما أحبّتْ سَعيدَ بن حميد مالت إلى غيره قليلا . أقصد بنان بن عمرو المغنى ، وكذلك مال سعيد إلى هبة المغنية تارة وإلى مظلومةَ جارية الدّقيقى تارة أخرى ، وليس بغريب أن يميل إلى غلام له من أولادِ المَوالى [2] ولا سيما أنه كانَ يدَّعى أنه من أولادِ ملوك الفرس [3] .

٤ . صلتها بأبناء عصرها :

سبق أن ذكرنا قولَ ابْن المعتز عن فضل أنها يجتمع عندها الأدباء ، ولها فى الخلفاءِ والملوكِ المدائح الكثيرة ، وكانت تتشيع وتتعصّب لهذه العصَابة وتقضى حوائجَهم بجاهها ، ومنزلتِها عندَ الملوك والأشرافِ .

---

(١) الخبتر والبيتان من روايات أبى الفرج الأصبهانى فى الأغانى ط . بيروت تحقيق/ عبد الكريم الغرباوى ١٩/ ٢١٢ والبيتان فقط لفضل فى المنتظم ٥/ ٧٠٦ ، الخبر برواية الحسن جحْظة عن على بن يحيى المنجم قال إنه جمع بين فضل وبنان فتعاتبا وقبل بنان اعتذارها حيث حلفت له ، ثم دارت الكأس بينهما فلما سكرت كتبت له البيتين . وذلك فى ذيل الأمالى والنوادر للبكرى /٨٦ ونقل عنه كحالة فى أعلام النساء ١٧٦/٤ .

(٢) الأغانى (بيروت) الغرباوى ١٨/ ١٥٦ ــ ١٥٧ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٨٠ تحقيق د/ إحسان عباس .

أى إن فضلا كان لها صلة بأبناءِ عصْرها من الأشرافِ والخلفاءِ والملـوكِ، وأول صلاتها هى بالخليفة المتوكل ، فمنذ أهديت إليه ... صارتْ جاريةَ المتوكـل الأثيرة المحبَّبة إلى قلبه وشاعرةَ القصر الأولىٰ بين الجوارى من مثيلاتها القيـان . حتى إنه كان يطلبُ من الشعراءِ أن يقولوا بيتا ، ثم يطلب من فضل أن تجيزَه .

قال المتوكل لعليّ بن الجَهْم ... قل بيتا ، وطالبٌ فضلَ الشاعرةَ بأن تجـيزَه فقال على : أجيزى يا فضلُ :

لاذَ بـــها يشْتكِـــى إليْـــها ... فلـمْ يجـــدْ عندَهـــا مَـــلاَذا

قال : فأطرقتْ هُنيهة ثم قالتْ :

فلـم يـزلْ ضَارِعـًـا إليْـها ... تـــهطلُ أجفانُـــه رَذاذا

فعَـــاتبُوه فـــزادَ عشْقـًـا ... فمـاتَ وجْـدًا فكـانَ مَـــاذَا ؟

فطرب المتوكل ، وقال : أحسنت ــ وحياتى ــ يا فضل ، وأمر لها بمائتى دينـار ، وأمر عريب ، فغنت فى الأبيات [1] .

ولقد كررت معظم المصادر والمراجع عبارة إعجاب المتوكّل بكل موقـف فيه إجازة من فضل ، أو رقعة مكتوبة ، وأمر لها بالعطاء الجزيل ، كما سبق فـى أكثر من خبر عنها طلب الخليفة لها وهى عند سَعيد أو غيره كما سَبق أن بينا علاقة فضل بسعيد بن حميد الكاتب المعروف وكانت علاقة حب وإعجاب ، حتى إنا قـد أثرت فى رسائله أو فى شعره تأثيرا اعترف به هو نفسُه . قال إبراهيم بن المـهدى لسعيد بن حميد : أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضْل رقاعَها وتقيدها وتخرجها ، فقـد أخذت نحوك فى الكلام ، وسلكت سبيلَك ، فقال لى وهو يضْحك : ما أخيب ظنك ، ليتها تسلم منى ، ولا آخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفـاضلُ الكتـاب وأماثلُهم عنها ، لما استغنوْا عن ذلك " [2] .

وسبق أيضـا أن بينا علاقة فضل ببنان بن عمرو المغنى حيث أعجب كل

---

(١) الأغانى (بيروت) تحقيق الغرباوى ١٩/ ٢١٣ .

(٢) السابق ١٨/ ١٦٨ .

منهما بالآخر، ثم كان الغضَب والفراق .

ومن الشعراء كان لفضل علاقة وطيدة بعليّ بن الجَهم لصلته بالمتوكل حيث كان يقول البيت من الشعر ويطلب هو أو الخليفة منها أنْ تجيزَه كما كان لها مع أبى شبل عاصم بن وهب صلة أدبية ، وقع خنساء جارية هشام المكفوف ، وسنورد ذلك فى موضُوعاتِ شعرها .

كما أن هناك أكثر من خبر يرويه عنها أحمدُ بن أبى طَاهر ولعله أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر المعروف بابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ وكان من أبنـــاء خراسان وولد ببغداد سنة ٢٠٤ هـ ، وكانت له عنايةٌ خاصة بكتُب المرأة وأدبـــها شعرًا ونثرا ، فهو صاحب كتاب بلاغاتِ النساء وهو جزءٌ من كتاب اختيارِ المنظومِ والمنثورِ .

ولقد التقى أحمد بن أبى طاهر بفضل ، قال : ألقيت أنا على فضل الشاعرة:

علَّـــم الجمَـــال تركتَنِـــــى ... فـــى الحـــبّ أشـــهرَ مـــنْ علَـــمْ

فقالتْ على البديهة :

وأبحتنَـــى يـــا سَـــيّدى ... سُـــقْماً يجـــلُّ عَـــن السَّـــقَمْ

وتركتنى فرضاً، فَدَيْـ ... ـتُـــكَ للعـــواذلِ والتَّـــهَمْ

صلَـــةُ المحـــبِّ حبيبَـــه ... اللهُ يعلمُـــــه كَـــرَم [1]

وكان لفضل صلة بأبى دلف القاسم بن عيسى العجلى حيث التقى بـــها فـــى مجلس المتوكل أكثر من مرة ، ومما يروىٰ فى ذلك أنه ألقـىٰ علـــى فضـــل أمـــام المتوكل قولَه :

قالوا عشقـــتَ صغـــيرةً فأحبتُـــهمْ ... أشهىٰ المطيِّ إلىّ ما لـــمْ يُركَـــبِ

كـــم بيـــنَ حبّـــةِ لُؤلـــؤٍ مثقوبـــةٍ ... لُبسَتْ وحبـــّةِ لُؤلـــؤٍ لـــمْ تُثقَـــبِ

فقالت فضل مجيبه له :

---

(١) السابق ١٩/ ٣٠٥ .

إن المطيــة لا يلَــذُّ ركوبُــها ما لــمْ تذلَّــلْ بالزِّمَــام وتُرْكَــبِ

والحــبُّ ليــسَ بنــافعٍ أصحابَــهُ ما لمْ يؤلَّــفْ للنظــامِ ويُثقَــبِ [1]

فبينهما إذن مساجلات أدبية سنورد بعضَها فيما بعد في موضوعاتِ شعرها .

ومن جواري القصر كان لفضل صلة خاصة ببعض جواري القصْر ممــن التقين بها مثل محبوبةَ وقبيحةَ وعريب ، وبعضُهن كنَّ شواعــرَ وبعضــهنَّ كــانت تطلب من فضل أن تنظم شعرًا على لسانها فــي أمــرٍ مــا ، كمــا حــدث بيــن مظلومةَ وفضل .

---

(١) الأغاني ١٨/ ١٥٨ (الغرباوي) .

موضوعات شعرها

إن القارئ لشعر فضل العبدية ليحسُّ بعدة قضايا أدبية تقترب من الحقائق :

أولاها : أنها شاعرة عباسية مُكثرة إذا ما قيست بغيرها من الجواري الشواعر المعاصرات لها مثل عنان جارية الناطفي ، وبدْعة الكبرى وحسناء جارية البرمكي ، ومحبوبة وبنان وقبيحة جواري المتوكل الأخريات ... ولكنها مقلة إذا ما قيستْ بشواعرَ أخريات مثل عريب جارية المأمون التي آلت إلى المتوكل .

ثانيها : أن الكثير من شعر الجواري في العصور العباسية قد ضاع ولم يتبقَّ منه إلا القليل ، مما غنتْ به المغنيات أو المغنُّون أو ما اتصل بحادثةٍ لا تنسى أو بموضوع فيه إجازة .... أو غير ذلك .

ثالثتها : أن شعرَ فضْل لم يستغرق كل الموضوعات الشعرية التي كانت ذائعة في عصْرها ، واقتصر على موضُوعات القصْر اليوميّة ، أو الأغراض الحياتية في القصور . وهي :

١ . المدح :

لم تمدح فضل خليفة أو وزيرا أو أميرا غير المتوكل ، فهو مولاها وسيدها وهي لم تعد أن تكون جاريةً من جواريه ، وإن كانت ذات حظوة عنده فحينما دخلتْ عليه لأول مرة كانت بها قد أعدت أبياتا تنشدها فيه مدحا ، فلم تجد من معاني المديح التي يخلعها الشعراء على الخلفاء إلا أنه يعد إمام الهدى بيد أنه لما يزل شابا في ... الثالث [ابن سَبع بعد عِشْرين] وأمامه مغريات الشباب من مال ومتاع كثير . تقول :

إنَّ المَلْكَ إمامُ الهُدَى
عَامٌ ثَمانٍ وثَلاثِينَا
نَضَتْ إلى جَعْفَرٍ
وهو ابْنُ سَبْعٍ بعدَ عِشْرِينَا

إن المطيــة لا يلَــذُّ ركوبُــها ما لــمْ تذلَّــلْ بالزِّمَــام وتُرْكَــبِ

والحــبُّ ليــسَ بنــافعٍ أصحابَــهُ ما لمْ يؤلِّــفْ للنظــامِ ويُثْقَــبِ [1]

فبينهما إذن مساجلات أدبية سنورد بعضَها فيما بعد فى موضوعاتِ شعرها .

ومن جوارى القصر كان لفضل صلة خاصة ببعض جوارى القصْر ممــن التقين بها مثل محبوبةَ وقبيحةَ وعريب ، وبعضُهن كنَّ شواعــرَ وبعضــهنَّ كــانت تطلب من فضل أن تنظم شعرًا على لسانها فــى أمــرٍ مــا ، كمــا حــدث بيــن مظلومةَ وفضل .

---

(١) الأغانى ١٨/ ١٥٨ (الغرباوى) .

موضوعات شعرها

إن القارئ لشعر فضل العبدية ليحسُّ بعدة قضايا أدبية تقترب من الحقائق :

أولاها : أنها شاعرة عباسية مُكثرة إذا ما قيست بغيرها من الجوارى الشواعر المعاصرات لها مثل عنان جارية الناطفى ، وبدْعة الكبرى وحسناء جارية البرمكى ، ومحبوبة وبنان وقبيحة جوارى المتوكل الأخريات ... ولكنها مقلة إذا ما قيسَتْ بشواعرَ أخريات مثل عريب جارية المأمون التى آلت إلى المتوكل .

ثانيها : أن الكثير من شعر الجوارى فى العصور العباسية قد ضاع ولم يتبقَّ منه إلا القليل ، مما غنَّتْ به المغنيات أو المغنُّون أو ما اتصل بحادثةٍ لا تنسى أو بموضوع فيه إجازة .... أو غير ذلك .

ثالثتها : أن شعرَ فضْل لم يستغرق كل الموضوعات الشعرية التى كانت ذائعة فى عصْرها ، واقتصر على موضُوعات القصْر اليوميّة ، أو الأغراض الحياتية فى القصور . وهى :

١ . المدح :

لم تمدح فضل خليفة أو وزيرا أو أميرا غير المتوكل ، فهو مولاها وسيدها وهى لم تعد أن تكون جاريةً من جواريه ، وإن كانت ذات حظوة عنده فحينما دخلتْ عليه لأول مرة كأنى بها قد أعدت أبياتا تنشدها فيه مدحا ، فلم تجد من معانى المديح التى يخلعها الشعراء على الخلفاء إلا أنه يعد إمام الهدى بيد أنه لما يزل شابا فى عقده الثالث [ابن سَبع بعد عِشْرين] وأمامه مغريات الشباب من مال ومتاع وملك كبير . تقول :

استقبلَ الملْكَ إمامُ الهدَىٰ ... عامَ ثَلاثٍ وثَلاثينَا

خلافةً أفضتْ إلى جَعْفرٍ ... وهو ابْنُ سبْعٍ بعدَ عشْرينَا

إنَّـا لـنرْجُو يـا إمـامَ الـهُدىٰ أن تملـكَ الدنيـا ثمانينـا [1]

وكما تدعو النساء جميعا .. تدعو له أن يدوم ملكُه ثمانينَ عاما أو يزيدُ ومرةً أخرى تخصُّهُ ببيتٍ واحدٍ من مقطَّعة عدتها ثلاثة أبياتٍ تَصِفُ فيها مجلسَ شرابٍ فتقول :

سُـلافةٌ كـالقمَر البـاهر فـي قـدَح كـالكوكَب الزَّاهـر
تديرُهـا خَشْـفٌ كبـدْر الدجَـىٰ فـوقَ قضيـبٍ أهْيَـفٍ نـاضِر
علـى فتـًى أروعَ مـنْ هَـاشِمٍ مثلَ الحُسام المرْهَـفِ البَـاتِر [2]

فهى تصف الخليفة بالفتوة والحدة كالسيف الباتر ، كما أنه من أصل عريق ينتهى إلى بنى هاشم أى بيت النبوة .

ومرة ثالثة تصفه فى أول بيت من مقطوعة ثلاثية أيضا بأنه بدر الدجى ... قائلة :

قد بَدا شبهُكَ يا مولاىَ يحدوُ بالظَّلام

ولم يؤثر فى شعرها مدح آخر ، فهى بالأحرى ليست شاعرة مديح ، فليس لديها من رصيد المعانى ، ما تمدح به الخلفاء كعادة الشعراء .

٢ . الهجاء :

لم يؤثر عن فضل الشاعرة أنها هجَتْ أحدا من الكُبَراء ، لكنها ـ على ما يبدو ـ كانت ككل الجَوارى تحب وتكرهُ ، تمدحُ وتهجُو ، تميل إلى بعْض ، وتنفر من بعضٍ آخر ، ومن هنا كانت تُهَاجى الخنْساء جاريةَ هشام المكفوفِ ، وكانت شاعرة أيضا ، روَىٰ محمد بن خلَف بن المرزبان قال : حدثنى أحمد بن أبى طاهر قال : كانت فضلُ الشاعرة تهاجِى الخنساءَ جارية هشام المكفوف ، وكانت شاعرةً ، وكان أبو شبل عَاصم بن وهب يعاون فضْلاً عليها ، ويهجوها مع فضْل ، وكان القصِيدى والحِفْصى يعينان خنساءَ على فضْل وأبى شبْل فقال أبو شبل

---

(١) فى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٥ ، وفى الأغانى (الهيئة) ١٩/ ٣٠٢ .
(٢) الأغانى ١٩/ ٢١٠ ـ ٢١١ .

على لسان فضل :

خنســـاء طـــيرى بجنـــاحَيْنِ ... أصبحـــت معشوقـــةَ نذلَيْـــنِ

من كانَ يـــهوىٰ عاشقـــاً واحـــدا ... فـــأنتِ تـــهوَيْنَ عَشِيقيْـــنِ

هذا القَصيدىُّ وهـَذا الفَتَـى الْـــ ... ـحِفْصِـيُّ قـد زَارَكِ فَرديْـــنِ

نَعِمْـتِ مـنْ هـَذا وهـَذا كمَـا ... ينعَـمُ خِـنْزيرٌ بخُشَّيْـنِ [1]

فقالت خنساءُ تجيبُها :

ماذَا مقالُ لـــكِ يـا فضـلُ بَـلْ ... مقَـــال خـــنْزيرَيْنِ فَرْدَيْـــنِ

يكنىُ أبا الشِّبْـلِ ولـوْ أبْصَـرَتْ ... عينـاهُ شبْـلا راثَ كُرَّيْـــنِ [2]

وقالت فضل فى خنساء :

إن خنســاءَ لا جُعلـتُ فداهَـــا ... اشْتَرَهـا الكَسَّـارُ مـنْ مَوْلاهـا

ولـــها نكْهَـةٌ يقـولُ مَحاذيـــ ... ـــها أهـذَا حديثُـها أم فُسَـاها

وقالت خنساءُ أيضا تهجو أبا شِبْل :

ما ينقَضِى فكْرِى وطولُ تعجّبـــى ... مـنْ نعْجـة تكنـى أبـا الشِّبْـلِ

لعب الفحـولُ بسُـفْلها وعِجانِـها ... فتمـــردتْ كتَمَـــرُّدِ الفَحْـــلِ

لمـا اكتَنَيْـتُ بمـا اكتنيْـتُ بـهِ ... وتَسَـمَّتِ النقصـــانُ بـــالفَضْلِ

كادتْ بنـا الدنيـا تَميـدُ ضُحـًى ... ونرَى السماءَ تذوبُ كالمُـهْلِ [3]

---

(١) خُشين مثنى خُش وهو البستان ثم نقل إلى موضع قضاء الحاجة لأنهم كـنوا يقضون حوائجهم فى البساتين .

(٢) رَاث الفرس مثل تغوّطَ الإنسان والكران مثنى كُر بالضَّم وهو مكيال قيل إنه أربعون إردبا .

(٣) الأغانى ١٩/ ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .

وواضح من هذه المبارزة الأدبية أن فضلا مع أبى شبل كونا جبهة ضد خنساء جارية هشام المكفوف ورفيقيها اللذين انضما إليها وهما القصيدى والحفصى ، وتبارز الفريقان كعادة الشعراء منذ العصر الأموى وقضية النقائص ، وبنفس الأسلوب الفاحش تهاجى الفريقان ، وماذا تقول النساء عند الكراهية والهجاء ، إلا الفحش والاتهام بالبغاء ، وهذا ما قاله أبو الشبل عاصم ابن وهب لخنساء ، على لسان فضل فقد اتهمها فى رفيقيها القصيدى والحفصى ، ثم صورها بأبشع صورة حيث جعلها كالخنزير الذى ينعم ببستانين ، يقضى فيهما حاجته ، فهى معشوقة نذلين بينما كل امرأة تعشق واحدا .

فتجيب خنساء ـ وهى عالمة أن هذا الشعر ليس لفضل بل هو لأبى الشبل على لسانها فتقول ما ذا مقالك أى ما هذا مقالك يا فضل ، بل هو مقال خنزير ابن فردين لا ابن خنزير واحد أى إن أمه بغى ، وهو عَاصِم بن وهب وكنيته أبو شِبْل والشبل معناه الأسد الصغير ، أو ابن الأسد ، وهو ليس بأسد ولا شبل فلو رأت عيناه شبلا لارتاعت فرائصه وراث روثا يكون مئات الأرادب .

وهنا تدخل فضل معركة الهجاء ، فتتبرى لخنساء هذه فتعيبها بعُبوديّتها فقد باعها مولاها للكسار ، وتعيبها أيضا بأنها بخْراء أى مُنْتِنةُ الفَم حتى إن محاذيها يقول أهذا حديثها أم فساها ؟ وهذه الأخيرة صفة نسائية تعير بها المرأة المرأة الأخرى خاصّة .

وترد عليها خنساء ببيتين أقبح من أن يذكرا فى هجاء فضل وأبى الشبل ثم ترد بهذه الأبيات الأربعة تخص بها أبا الشبل فتشبهه بنعجة قد وطئها الفحول كثيرا حتى تمرّدَتْ تمرّدَ الفُحول ، وإنها لتعجب من كنيته بأبى شِبل والشِبْل الأسد ـ كما مر من قبل ـ فكأن النقص قد سمى بالفضل والزيادة ، وانقلبت الموازين فكادت الدنيا تميد وتهتز وتذوب السماء كالمهل ، وهذه كناية عن يوم القيامة .

وهذا يعنى أن فضلا قد دخلت معركة هجائيّةً مفحشة . تردُّ إلى الأذْهان ما كان من فحش فى معركة النقائص الأموية التى دارت بين جَرير وخُصُومه الكُثَّر الفرزدق والأخطل التغلبى وعمر بن لجأ وعبيد بن حصين [الراعى النميرى]

وغيرهم ممن زجوا بأنفسهم فى معركة شعرية ألجأتهم إلى الإفحاش فى التعبير والتصوير .

ولا شك أن هذه الصورة الأموية كانت فى ذهن أبى شبل عاصم بن وهب حينما كان يهجو خنساء بالنيابة عن فضل ، فكان يفحش فى الرد عليها .

فقد روى صاحب الأغانى عن أبى هريرة البصرى ، قال : كان أبو الشبل يعابث قنية كانت لهشام النحوى الضرير يقال لها خنساء ، وكانت تقول الشعر ، فقالت له يوما : أنا والله أشعر منك ، ولئن شئت لأهجونك ، فأقبل عليها فقال :

خنساءُ قد أفرطْتِ علينا ... فليسَ منها لنا مُجير

باهَتْ بأشعارِها علينا ... كأنما ... (١) جرير (٢)

فعلى سبيل الخيال هى تزهو عليهم بشعرها الفاحش فكأنما وطئها جرير بن عطية الخطفى رغم أن بينهما من الزمان قرن ونصف قرن أو يزيد .... حينذاك وهذا بسبب بذاءة شعرها .

ولم يكتف أبو شبل بهجاء خنساء بأن رماها بجرير فقد راح يصف سيدها هشاما النحوى بالبغاء أيضا أو باللواط أو اللؤم يقول عنه :

نعْمَ مأْوىٰ العُزّابِ بيت هشام ... حين يُرمِى اللئامُ باغِى اللئامِ

من أرادَ السرورَ عند حبيبٍ ... لينالَ السرورَ تحتَ الظلامِ

فهشامٌ نهارُهُ ودُجَى الليـ ... ـلِ سَواء ، نفْسى فداءُ هِشَامِ

ذاك جرٌّ دواتُه ليس تخلو ... أبدًا من تخرُّقِ الأقْلامِ (٣)

فهو يصف بيت هشام النحوى بأنه مأوى العُزّابِ ، أو بتعبير آخر إن بيت هشام النحوى ملتقى الأحبة ينالونَ السرورَ عنده ، حيث إنه رجل ضرير ، نهاره كليله ، فلا يرى شيئا مما يحدث فى بيته ، وبما أنه عالم نحوى فدواته [يقصد حره] ليست

(١) ~~جرت دلكليب لقبحها~~

(٢) المستظرف من أخبار الجوارى للسيوطى ٢٣ ــ ٢٤ .

(٣) الأغانى ١٩/ ٣٠٩ .

تخلو من تخرق الأقلام لها [يقصد الأيور] وهذه الصورة رغْمَ فنيّتها إلا أنها صورة فاحشة بذيئة .

٣ . الاعتذار :

روى عن فضل أنها اعتذرت شعرا مرة واحدة ، وذلك فى خبر برواية محمد بن خلف بن المرْزُبان عن أبى يوسف بن الدقّاق الضّرير ، قال : صرت أنا (أى ابن الدقاق) وأبو منصُور الباخَرْزى إلى منزل فضل الشاعرة فحجبنا عنها ، وانصرفْنا وما علمتْ بنا ، ثم بلغَها مجيئنا وانصرافنا ، فكرهت ذلك وغمها ، فكتبت الينا تعتذر :

وما كنتُ أخشَى أنْ تروْا لى زَلّةً ... ولكنّ أمرَ الله ما عنهُ مذْهَبُ

أعوذ بحُسن الصفْح منكمْ وقبلَنا ... بصفْحٍ وعفوٍ ما تعوّذَ مُذْنِبُ

فكتب إليها أبو منصور الباخَرْزى :

لئن أُهْديتْ عُتباكِ لى ولإخوتى ... فمثلكِ يا فضلَ الفضائلِ يُعْتَبُ

إذا اعتذر الجانى محا العذرُ ذنبَهُ ... وكلّ امرئٍ لا يَقْبلُ العذرَ مُذْنِبُ [1]

ففضل تعتذر إلى ابن الدقاق والباخَرْزى عن زَلّتها غيرِ المقصودةِ ، لكنه أمرُ الله فهى تسألهما الصفح والعفو عنها ، ولا ذنب بعد الاعتذار ، ثم يرد عليها أبو منصور الباخرزى ..... فيقول يا فضل لئن أهديتْ عتباكِ لى ولصاحبى فمثلك يُعتب ، وقد مُحِى ذنبُك بهذا الاعتذار ، وقد قُبل اعتذارك ، وأى إنسان لا يقبل العذر مذنب .

وهذه أبسط صور الاعتذار ، فلا حجة فيه ولا قضية سوى تعليق الأمر على الله فى هذا الخطأ . [ولكن أمر الله ما عنه مذهب] وذلك لأن الحدث نفسه أبسط من أن يقال فيه شعر أو ينظم فيه اعتذار .

---

(١) الأغانى للغرباوى ١٩/ ٣٠٧ .

٤ . الغزل :

من المعروف أن فن الغزل هو أحب فنون الشعر العربى إلى نفسية القارئ أو المتلقى بعامة ، ولذا فهو من أكثر فنون الشعر العربى ذيوعا وانتشارا ، ولا سيما فى أشعار النساء ، وأخص منهن الجوارى والإماء ، فليس لديهن ما يشغلهن إلا الحب وأغانى العشق والغرام ، فهن يعتقدن أنهن قد خلقن لذلك وَحَسْب .

وإذا ما استقرأنا شعر فضل العَبْدية وجدنا أن شعر الغزل يحتل مكان الصدارة بين فنون شعرها ، حيث كانت تتعاطاه فى مناسبات القصر الخاصة ، فيسيل منها دلالاً وعجبا ، أو إجازةً وارتجالا .

ومن النوع الأول ما يروى عنها حين خرج المتوكل يوم النيروز ، فإذا جاريته قبيحة تأتيه وفى يدها كأس بلور بشراب صاف هدية إليه ، وقد كتبتْ على خدها بالمسك " جعفر " فشرب الكأس وقبل خدَّها ورأت فضل هذا المشهد الشاعرى فقالت على لسان الخليفة ارتجالاً :

وكاتبة بالمسْكِ فى الخدّ جعفرا ... بنفسى سوادَ المسْك من حيث أثّرا

لئن أودعتْ سطرا من المسك خدَّها ... لقد أودعتْ قلبى من الحب أسْطُرا

فيا من لمملوكٍ تملَّك مالكاً ... مُطيعا له فيما أسر وأظهر

ويا من مُناها فى السريرة جعفرٌ ... سقى اللهُ من سُقيا ثناياكِ جَعْفَرا[1]

فهذه فضل وقد تقمصت شخصية الخليفة جعفر أبى الفضل (المتوكل) فتعبر عن مشاعره حيال جاريته فهو يفديها بنفسه ، فقد أثرت فى قلبه حيث أودعت سطورا من الحب ، فأعْجَبْ لمملوكٍ (جارية) تملك مالكها فيطيعها فى السر والعلن ثم يدعو لنفسه أن يستى من ريق ثناياها العذاب .

ومرة أخرى تعبر فضل عن مشاعر الحب (حب الرجل لجاريته) أو بتعبير أدق حب الخليفة لجاريته الجميلة ، وقد عبرت عن حب المتوكل لجاريته وزوجته بعد ذلك (قبيحة) ، وهى هنا تعبر عن حب ابنه المعتمد على الله أبى العباس أحمد بن المتوكل لجارية تعلق بها قلبه منذ عهد أبيه ..... فقد روى أحمد بن

---

(١) الخبر فى الأغانى (الهيئة) ١٩ / ٥١٠ - ٥١١ وفى العقد الفريد ٦ / ٤٠٥

حمدون أنه عرضت على المعتمد جارية تباع فى عهد المتوكل ، وهو يومئذ حديث السن ، فاشتط مولاها فى السوق ، فلم يشترها ، وخرج بها إلى ابن الأغلب ، فبيعت هناك ، فلما ولى المعتمد الخلافة ، سأل عن خبرها ، وقد ذكرها ، فأعلم أنها بيعت ، وأولدها مولاها ، فقال لفضل الشاعرة قولى فيها شيئا ، فقالت :

علَّم الجمال تركتِنى ... فى الحبّ أشهرَ من علَمْ
ونصيبِى يا مُنْيتى ... غرضَ المظنَّة والتُّهَمْ
فارقتنى بعد الدنوّ ... فصرتِ عندى كالحُلُمْ
فلو أن نفسى فارقتْ ... جسْمى لفقدِكِ لم تُلَمْ
ما كان ضَرَّكِ لو وصلـ ... ـتِ فخفَّ عن قلبى الألَمْ
برسالةٍ تهدينَها ... فى زَوْرة تحتَ الظُّلَمْ
أولا فطيْفى فى المنَا ... م فلا أقلَّ من اللَّمَمْ
صلةُ المحبِّ حبيبَهُ ... اللهُ يعلَمُه كَرَمْ (١)

فهى هنا أيضا عبرت عن مشاعر المعتمد نحو جارية تعلق بها قلبه منذ حداثة سنه ، فلما ولى الخلافة تذكرها فسأل عنها وحن إليها ، وطلب حينئذ من فضل أن تصفَ مشاعره ، فخاطبتِ الجاريةَ بأنها علمُ الجَمال وقد تركته فى الحب أشهرَ من العلم ، وفارقته بعد القرْب فصارت كالحلم فى حياته ، كما أصْبَح غرضا للظن والتهم ، فلو ماتَ فلا لوم عليه ، ثم يطلب منها الوصَال لتخفف الألم عن قلبه ولو برسالة تهديها إليه فى زَوْرة ليلية أو بطيف فى منام ، ولا جَرَم فهذه الأمور من اللمم أى من صغار الذنوب ، التى غفرها الله فصلةُ المحب لحبيبه يعد عند الله كرماً منه .

وهكذا تعبر فضل عن تجربة الحب عند الخلفاء ، وأيضا تعبر عن ذلك

---

(١) الخبر والأبيات فى الأغانى ١٩/ ٣٠٢ ــ ٣٠٣ ، ١٩/ ٣٠٥ وفى بدائع البدائه ١٣٨ .

إذا كانت طرفا فيه . فقد قال على بن الجهم : كنت يوما عند فضل الشاعرة ، فلحظها لحظة استرابت بها فقالتْ :

يا رُبَّ رامٍ حَسَنٍ تعرضُهْ
يَرْمِي ، ولا يشعرُ أنى غَرَضُهْ

فقلتُ :

أى فتًى لحظُكِ ليسَ يُمْرِضُهْ
وأى عَقْدٍ مُحْكَمٍ لا ينقُضُهْ

فضحكت وقالت : خذ فى غير هذا الحديث [1] .

فهذا الرجز الارتجالى يتناول أثر نظرة العين فى قلب المرأة ، فهى دائما غرض السهام يرمى الرامى بحدّ عينه ، وإن كان حَسَن التعرض ، ولا يدرى أنه قد أصاب فأصمى .

فيرد على بن الجهم معتذرا بحدة عينيها هى الأخرى فلحظها يصمى قلبه ويفك عقده المبرّم المحكم فينقضه بلا حَرَج .

وتظل فضل تعانى من نظرة العين الجارحة ، وفعلها فى قلوب العذارى ، فيحدثنا أحمد بن أبى طاهر فيقول : ألقى بعض أصحابنا على فضل الشاعرة :

ومُسْتَفْتِحٍ بَابَ البلاءِ بنظْرَةٍ تزوَّدَ منها قلبُهُ حسرةَ الدهْرِ [2]

فقالت :

فو الله ما ندرى أتدرى بما جَنَتْ على قلْبه أو أهلكتْه وما تَدْرِى ؟

وهذان البيتان أيضا يتضمنان معنى الرجَز السابق والبادئ هو أحد أصحاب أحمد بن أبى طاهر أى الرجل فيقول رب ناظر قد فتح باب البلاء على نفسه

---

(١) فى الأغانى (ساسى) ٢١/ ١١٧ وطبعة بيروت ١٩/ ٣٠٥ ــ ٣٠٦ وفى بدائع البدائه ٤١ وفى ديوان على بن الجهم ١٥٣ .

(٢) الخبر والبيتان فى الأغانى ١٩/ ٣٠٥ .

بنظرة منه فتزود قلبه منها حسرة الدهر كله ، فترد فضل عليه قاتلة ، فترد الفتاة بنظرتها القاتلة ، فما ندرى نحن أتعلم هى بجنايتها على قلبه ؟ الحق أنها قد أهلكته وما تدرى بذلك .

وهذا الغزل من فضل العبدية بعيد عن تجربة حبها لسعيد بن حميد ، فلما أحبت سعيدا كان لتجربة حبها له أثرٌ بعيد فى شعرها الغزلى بعد ذلك فقد خاضت التجربة الغرامية بكل أبعادها المتشعبة ، فعبرت عن الألم والأرق وأثر الحب فى القلب ، وتغاضب العشاقان وتعاتبا وافترقا والتقيا وما إلى ذلك مما هو معروف بين كل عاشقين ، وقد مر طرف من ذلك عند الحديث عن علاقتها بسعيد بن حميد هذا وكيف كانت العلاقة عن طريق المراسلات الشعرية المتبادلة بين العاشقين ..... ومن هذه الرسائل الخفيفة ..... فقد كتبتْ فضل إلى سعيد بن حميد تقول :

بثثتُ هواكَ فى بدَنى ورُوحى ... فألِّفَ فيهما طمعًا بيَاسِ

فأجابَها سَعيدٌ فى رقعَتها :

كفانَا الله شرَّ اليأسِ إنِّى ... لبغضِ اليأسِ أُبْغِضُ كلّ آسِى [1]

فهى تشكو إليه بث هواه فى بدنها وروحها حتى بين اليأس والرجاء فيستبعد سعيد كل صور اليأس ، فقد صار يكره كل الأساة أى الأطباء لفرط كرهه لليأس وضياع الأمل .

وقد تُصَرِّحُ فضلٌ بحبّها ارتجالا عن طريق الإجازة ، والإجازة تدل على سُرْعةِ البديهة والخاطر ، وعمق التجربة ، وقوة الشاعرية والتمكن من الصنعة الفنية . ومن ذلك ما حدث حينما قال المتوكل لفضل أجيزى لى قول الشاعر :

تعلمتُ أسبابَ الرِّضَا خوفَ عَتْبِها ... وَعلَّمها حبى لها كيفَ تغضَبُ

فقالتْ له فضلٌ :

تصدُّ وأدنُو بالمودَّةِ جَاهداً ... وتبعدُ عنى بالوصَال وأقرُبُ [2]

---

(١) السابق ١٩/ ٢١٢ .

(٢) السابق ١٩/ ٣٠٥ .

وهنا يتمثل المتوكل بيتا الشاعر فتأمله فضل فى سرعة خاطفة وترد عليه بيت آخر مسكت من حيث المعنى والمبنى ، ويكون على نفس وزن الأول وقافيته فالمتوكل يرى أنه تعلم أسباب الرضا خوف غضبها ثم عتبها فيما أتى ، وعلمها كيف يدنو جاهدا بحبه ومودته ، وهى تبعد بينما هو يقترب بوصاله .

وهكذا تجمع فضل بين المتضادات لتبين الفارق بين مشاعر الحبيبين ، وهذا ملمح من ملامح الجمال الفنى فى البيت .

وقد تحلو الإجازة بين العاشقين فيروى جعفر بن قدامة قال : حدثنى سعيد بن حميد .

قال : قلت لفضل الشاعرة أجيزى :

مَنْ لمحِبٍّ أحبَّ فى صِغَرِهْ

فقالت : فصارَ أُحْدوثَةٌ على كِبَرِهْ

فقلت : مِنْ نظَرٍ شَفَّهُ وأرَّقَهُ

فقالت : فكانَ مبْدَا هواهُ مِنْ نظَرِهْ

ثم شُغِلتْ بالشراب هنيهة ثم قالتْ :

لولا الأمَانى لماتَ مِنْ كمَدٍ ... مَرُّ الليالى يَزيدُ مِنْ فِكَرِهْ

ليس لهُ مسْعدٌ يساعدهُ ... بالليل فى طُولِه وفى قِصَرِه

الجسْمُ يبلىٰ فلا حَراكَ بهِ ... والروحُ فيما أرىٰ على أثَرِهْ [1]

هذه الإجازة بين سَعيد وفضل فهى أشبه بمناجاة عاطفية بين عاشقيْن ، فقد بدأ الإجازة سعيد بشطر من المنسرح قائل من لمحب أحب فى صغره أى من مسعد محبا أحب فى صغره وكأنه يعنى نفسه فتجيبه فضل مسرعة إنه صار أحدوثة على كبره ، فيجيبُ سعيدٌ من نظر أصابه فأرقه ليلا وشفَّ نفسَه ، فتقول فضل إذن

---

(١) الخبر والأبيات فى مصارع العشاق ١/ ٤٧٧ ــ ٤٧٨ وفى الإماء الشواعر لأبى الفرج الأصفهانى ٥ ــ ٦٦ .

فالسبب فى حبه كان من نظره ــ وتشرح فضل بعد ذلك لواعج الهوى فترى أن العاشقَ يعيش متعلقا بالآمال والأمانى ، ولولا ذلك لأتتْ عليه الليالى وطول التفكير والكَمد ، وليس له مسعد أو معين على طول ليله أو قصره ، فيبلى الجسم ويمرض ، ثم تبلى الروحُ على أثر الجسد .

إذن فقد تحدثت فضل إجازة وارتجالاً أو مراسلات شعرية عن قضية الحب أو تجربة الحب بينها وبين سعيد بن حميد ، وبنان بن عمرو ، وقد ردت على على بن الجهم وأبى دلف العجلى غزلا ..... وبعض تفاصيله من فعل العين والنظر وفعله فى القلب ، كما أن الحب فى نظرها أرق وألم فى الفؤاد وبلاء للجسم وربما إزهاق للروح .

وقد يميل غزل فضل ميلا طفيفا نحو الجنس فى تشبيه موح ، وفى إجازة سريعة ، وكان ذلك بينها وبين أبى دلف العجلى : حين قال :

قالوا عشقْتَ صغيرةً فأجبتُهمْ ... أشهى المطىّ إلىَّ ما لمْ يُرْكَبِ

كم بينَ حبَّة لؤلؤٍ مثقوبةٍ ... لبستْ ، وحبة لؤلؤٍ لمْ تُثْقَبِ

فترد فضلٌ ارتجالا قائلة :

إن المطيةَ لا يلذُّ ركوبُها ... ما لم تذللْ بالزمامِ وتُركَبِ

والدرُّ ليسَ بنافعٍ أصحابَهُ ... حتى يؤلَّفَ للنظامِ بمِثْقَبِ [1]

فأبو دلف العجلى يرى أن حب البنت الصغيرة أمر جميل فشبهها بالمطية التى لم تركب ، ثم عاد فأكد رأيه بالدر واللآلئ فشتان بين اللؤلؤ المثقوب الذى لبس ، واللؤلؤ البكر غير المثقوب ، فالثانى غال ثمين .

فتعارضه فضل فترى أن المرأة الشابة الثيب أفضل من البكر التى لم تذلل ، ثم شبهت هذا الأمر بالمطية الذلول التى يلذ ركوبها ــ ثم عادت فردت على تشبيه المرأة بالدر فرجحت الدر المثقوب على الدر البكر حيث إن الذى ألف بالمثقب فى عقد منظم ينتفع به أصحابه أما الدر الغفل ليس بنافع أصحابه ، ومعلوم أن تثقيب

---

(١) انظر الأغانى ١٥٨/١٩ ، ونساء الخلفاء / ٨٦ ، والمستطرف / ٥١ وغيرها .

الدر رمز لفض بكارة الفتاة ، والركوب رمز للعملية الجنسية وهذه رمـــوز ليســت بخافية على قارئ الأدب .

٥ . الرثاء :

لم يؤثر عن فضل شعر فى رثاء أحد من معاصريها ... غير بيتين اثنين فى رثاء المتوكل ... مولاها صبيحة مقتله : فقالت وهى تبكى :

إن الزمانَ بذَحْـــلٍ كـــانَ يطلبنُـــا ما كـــانَ أغفلنَـــا عنـــهُ وأسْـــهَانا

ما لى وللدهْر قد أصبحتُ همّتَـــه ما لى وللدهر ما للدهرِ لا كانَـــا[1]

وواضح من البيتين إنهما وليدا ارتجال حزين ، وبكاء سخين ، حيث لم ترثِ الخليفة الرثاء المرتقب من جارية فى قَصْرِه ، فلم تعد أن شكت الزمان الغادر الـــذى ثـــار منهم بخطف الخليفة أو بقتله غيلة ، وكان من قبل غافلا عنهم ، فصارت اليوم هـــم الدهر وشغله ، ثم تدعو على الزمن ، بقولها ما لى وللدهر ما للدهر لا كان . فـــهى لم تتناولْ مآثر الخليفة مثلا كما تعودنا فى شعر الرثاء للخلفاءِ والأمـــراءِ والقـــوادِ ، فالبيتان أشبه ما يكونان بشكوى الزمان أكثر منهما رثاء ، غير أنهما قيلا صبيحـــة قتل الخليفة وهى تبكى عليه ، ولذا فهما بين الرثاء وشكوى الزمان .

وفاتها :

أجمعت الروايات على أن فضلَ الشاعرة قد تُوفيت ببغداد سنة ٢٥٧ هـ ، رأى ذلك ابن تَغْرى بردى [2] ، وابن الجراح فى كتابه الورَقة وقد نقله عنه ابن الساعى فـــى نساء الخلفاء [3] ، وكذلك جاء الزِّركْلى فى العصر الحديث فنقل عنهما [4] .

ولم ينفرد برأى آخر إلا ابْنُ شاكر الكتبْى حيث سجل فى فَـــوَاتِ الوفيـــات أن فضلاً توفيت سنة ٢٦٠ هـ [5] .

---

(١) انظر الأغانى ١٩/ ٣١٠ . (٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٨ .

(٣) نساء الخلفاء لابن الساعى ٩٠ . نقلا عن الورقة لابن الجراح .

(٤) الزركلى فى الأعلام ٥/ ١٤٦ ــ ١٤٧ . (٥) النجوم الزاهرة ٢/ ١٥٣ .

شعر فضل وحياة الخلفاء في القصور

سبق أن عرفنا أن فضلا العبدية كانت جارية حسناء اشتراها محمد بن الفرج الرخجي من أبيها ــ وكان رجلا من بنى عبد القيس وقد أدبها وخرجها وباعها له ، فأهداها ابن الفرج إلى المتوكل الخليفة العباسى .

" والمتوكل على الله جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد ، بويع بالخلافة سنة ٢٣٢ هـ ، بعد وفاة أخيه الواثق بالله بسامراء ، فأظهر الميل إلى السنة ، ونصر أهلها ورفع المحنة وكتب بذلك إلى الآفاق ، واستقدم المحدثين إلى سامراء ، وأجزل عطاياهم .... وجلسوا فى المساجد يحدثون الناس ، فتوفر دعاء الخلق له ، وبالغوا فى الثناء عليه ، والتعظيم له ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة أبو بكر (رضي الله عنه) قتل أهل الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد المظالم ، والمتوكل فى إحياء السنة " [1] .

وقد حكم المتوكل خمسة عشر عاما حيث قتله الأتراك باتفاق مع ابنه المنتصر سنة ٢٤٧ هـ ، وكان أول من قتل من الخلفاء العباسين بيد الترك ز

ورغم أن المتوكلَ كان سُنِّيَّ المذْهب ، فقد أخذ بكل أسباب الترَف والنعيم المعروفة فى ذلك العصر فى قصور الخلفاء كاتخاذهم الجوارى والغلمان منادمين لهم ، والتزيّن بالوُرود والزهور التى تنم عن رقّة الشعور ورهافةِ الحسّ ، واتخاذ الجواهر والخواتِم مظهرا حضاريا ، ومجالا للزينة والمباهاة ، وكذلك المبالغة فى الهدايا والمنح ، كما افتن الخلفاء العباسيون فى اقتناص اللهو بألوانه المختلفة مثل الرياضة والصوالجة والصيد ولعب النرد والقمار والشطرنج ومعاقرة كئوس الشراب والتمتع بالغناء [2] .

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى / ٣٤٦ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى كتاب (الخلفاء والخلعاء) ، د . صلاح الدين المنجد / ٣٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

أما عن المتوكل فقد كان له مجلس غناء يجتمع إليه فيه الشعراء والندماء والمغنون وتدور كئوس الراح ، وينغمس الجميع فى السكر والطرب حتى قيل : " كان بنان وزنام مطربى المتوكل ، وكان كل منهما منقطع النظير فى طبقته ، فإذا اجتمعا على الضرب والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا وعجبا ، وكان المتوكل لا يشرب إلا على سماعهما " [1] ، وفيهما يقول البحترى من قصيدة :

هل العَيْشُ إلا ماءُ كَرْم مُصَفَّقٍ ... يُرقْرِقُه فى الكأس ماءُ غَمام

وعُودَ بنانٍ حينَ ساعد شجْوُهُ ... على نَغم الألحانِ نايَ زُنَام [2]

ومن هؤلاء الذين أحاطوا به فى قصره من الشعراء البحترى الوليد بن عبادة حتى إنه كان نديمة لحظة مقتله ، وعلى بن الجهم وكان مختصا بالمتوكل فقربه إليه ، كما كان يفضى إليه بأسراره ويطلعه على أموره الخاصة بينه وبين حظياته وجواريه ، والحسيْن بن الضَّحّاك (الخليع) ، ومرْوان بن أبى الجَنُوب ، وأحمد بن حَمدون ، ومن الشعراء الظّرفاء أبو العَيْناء محمد بن القاسم بن خَلاّد ابن ياسر الهاشمى ، وهو مشهور بشعره ونوادره وظرفه [3] ، ومن الشعراء الكتاب سعيد بن حميد صاحب فضل ، وسعيد بن عبد الملك وهو محدث بليغ من جلساء المتوكل ، والفتح بن خاقان وزير المتوكل المولع بالشعر والأدب ، وقد قتل معه لحظة هجمة الترك عليه ، وابن أخى الفتح بن خاقان عبيد الله بن يحيى بن خاقان صديق المتوكل وخدينه ووزيره ، وأبو الشبْل عَاصم بن وَهْب بن البراجم وقد وفد على المتوكل ومدحه ، ومحمد بن صَالح العَلوى شاعر الحجاز وفد على المتوكل وله فيه مدائحُ كثيرةٌ جِياد ، والشاعر الحِمْصى الذى كان يعاون خنساءَ الشاعرةِ على فضْل .

ومن الجوارى : فضْلُ العبْدية موضوعُ هذه الدّراسَة ، وخنساءُ جَارية هشام

---

(١) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى / ١٥٥ .

(٢) ديوان البحترى ١٩٩٧/٣ م .

(٣) انظر ديوانه ونوادره ، جمع أنطوان القوال (طبعة بيروت) ١٩٩٤ م .

المكفوف ، وعريب المأمونية وهى من كبار العارفات بالغناء والضرب على العود حتى يقال إنها صنعت ألف صوت فى الغناء ، وقَبيحة ولها مع فضل أخبار وأشعار ، وبنان ، ومحبوبة ، ومظلومة ، وشجرة الدر ، وغيرهن من الجوارى المغنيات أو الشاعرات .

ومن المغنين : الجُرجائى أبو جَعفر محمد بن الفضل وكان شيخا عالماً بالغِناء وَوزِيرًا أيضا .

ومن العلماء اللغويين : أبو منصور الباخرزى وكان يحضر مجالس فضل الأديبة ، وأبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل وكان سيد الكرخ ، وأحد الأمراء الأجواد ، وغير هؤلاء وأولئك خلق كثير ممن لهم دراية بالشعر وروايته والغناء وضروبه وأدواته وأصحاب النوادر والملح والفكاهة والظرف [1] .

وظل المتوكل هكذا منغمًسا فى مجالس لهوِه وطربِه حتى كانت منيته فى إحدى هذه الجلسات حيث قتله بَاغر التُرْكى ، حين " أحدقَ به النُّدمان والمطْربون ودارت الكئوس وطابتِ النفوسُ ، فانقلبَ مجلس اللهو والطَّرَبِ إلى مجْلس الويْلِ والحَرَب " [2] ، حتى سميت بليلة المتوكل قال أبو القاسم الزعفرانى :

كم آمنٍ مُتَحصّن فى جَوْسَقٍ قد باتَ منه بلَيْلَةِ المتوكِّلِ [3]

وعادة ما كان فى هذه المسامرات واللقاءات مجاوبات بين المغنين وقصص حب وعشق بين الجوارى والغلمان ، وكان لفضل جارية المتوكل دور فى صنع هذه المجاوبات والمناظرات ، ومن ذلك ما رواه ابن رشيق القيروانى عن بنان المغنى مع فضل الشاعرة حيث كانا يتعاشقان ، فإذا غنى بنان :

---

(١) انظر فى ذلك بالتفصيل مقدمة ديوان على بن الجهم م ١٠ ، ١٣ ، وتراجم الأعلام فى " شعراء عباسيون " / ٣٢١ ــ ٣٤٢ ، وكتاب (الخلفاء والخلعاء) لصلاح الدين المنجد / ١٣ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٦٧ ، ونساء الخلفاء / ٨٤ ــ ١٠٣ .

(٢) ثمار القلوب للثعالبى / ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) ثمار القلوب للثعالبى / ٩١ ، نقلا عن كتابه يتيمة الدهر .

اسمعي أو خبرينا ... يا دار الظاعنينا

فقال على منبها عليهما فى ذلك :

كلما غنّى بنان ... "إسمعي أو خبّرينا"

أنشدتْ فضلٌ "ألا حيـ ... ـتَ عنا يا مَدينا"

عارضتْ معنىً بمعنىً ... والندامى غافلونا

أحسنتْ إذْ لمْ تجاوبـ ... ـهُمْ ديارُ الظّاعنينا

واستعاد الصوتُ مَوْلَـ ... ـها وحثّ الشّاربينا

قلتُ للمولى وقَدْ دا ... رَتْ حُمَيّا الكأْس فينا

ربّ صَوْتٍ حَسّنَ يُنْـ ... ـسِتُ فى الرأْس قُرونا (١)

إذن فقد كانت مجالس الغناء التى تعقد ليلا فى قصور الخلافة تجمع الخلفاء والوزراء والمغنين والجوارى والخلعاء ، وكثيرا ما تحدث منافسات بين الجوارى فى ميادين الغناء والطرب وقرض الشعر ، فإذا رأى الخليفة أمرا طلب من ندمائه من الشعراء أن ينظموا فيه شعرا ، ومما روى فى ذلك من طرائف أن المتوكل دخل على جاريته قبيحة ، فوجدها قد كتبتْ على خدّها بالمسْك اسم الخليفة (جعفر) فلما رآها قبل خدها ، وقال : ما رأيت سوادًا فى بياضٍ أحسنَ منه فى ذلك الخدّ ، وكانت فضلٌ واقفة ، فقالتْ على لسان الخليفة وقيل إن الخليفة طلب منها ذلك :

بنفْسى خطّ المسْك من حيث أثّرَا ... كاتبةٍ بالمسْكِ فى الخدّ جعفرَا

فقد أودَعتْ قلبى من الحُبّ أسْطُرَا ... دعتْ سطراً من المسْك خدّها

مطيعاً له فيما أسَرّ وأظْهَرَا ... ن لمملوكٍ تملّكَ مالكاً

---

١ لابن رشيق ٢/ ٨٧ ، وديوان على بن الجهم / ١٨٥ .

المكفوف ، وعريب المأمونية وهى من كبار العارفات بالغناء والضرب على العود حتى يقال إنها صنعت ألف صوت فى الغناء ، وقَبيحة ولها مع فضل أخبار وأشعار ، وبنان ، ومحبوبة ، ومظلومة ، وشجرة الدر ، وغيرهن من الجوارى المغنيات أو الشاعرات .

ومن المغنين : الجُرجائى أبو جَعفر محمد بن الفضل وكان شيخا عالماً بالغِناء وَوزِيرًا أيضا .

ومن العلماء اللغويين : أبو منصور الباخرزى وكان يحضر مجالس فضل الأديبة ، وأبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل وكان سيد الكرخ ، وأحد الأمراء الأجواد ، وغير هؤلاء وأولئك خلق كثير ممن لهم دراية بالشعر وروايته والغناء وضروبه وأدواته وأصحاب النوادر والملح والفكاهة والظرف [1] .

وظل المتوكل هكذا منغمسًا فى مجالس لهوِه وطربِه حتى كانت منيته فى إحدى هذه الجلسات حيث قتله باغر التركى ، حين " أحدقَ به النُّدمان والمطْربون ودارت الكئوس وطابتِ النفوسُ ، فانقلبَ مجلس اللهو والطَّرَبِ إلى مجْلس الويْلِ والحَرب " [2] ، حتى سميت بليلة المتوكل قال أبو القاسم الزعفرانى :

كم آمنٍ مُتَحصّن فى جَوْسَقٍ قد باتَ منه بلَيْلَةِ المتوكِّلِ [3]

وعادة ما كان فى هذه المسامرات واللقاءات مجاوبات بين المغنين وقصص حب وعشق بين الجوارى والغلمان ، وكان لفضل جارية المتوكل دور فى صنع هذه المجاوبات والمناظرات ، ومن ذلك ما رواه ابن رشيق القيروانى عن بنان المغنى مع فضل الشاعرة حيث كانا يتعاشقان ، فإذا غنى بنان :

---

(١) انظر فى ذلك بالتفصيل مقدمة ديوان على بن الجهم م ١٠ ، ١٣ ، وتراجم الأعلام فى " شعراء عباسيون " / ٣٢١ ــ ٣٤٢ ، وكتاب (الخلفاء والخلعاء) لصلاح الدين المنجد / ١٣ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٦٧ ، ونساء الخلفاء / ٨٤ ــ ١٠٣ .

(٢) ثمار القلوب للثعالبى / ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) ثمار القلوب للثعالبى / ٩١ ، نقلا عن كتابه يتيمة الدهر .

اســـــمعى أو خبرينـــــا يـــــا دار الظاعنينـــــا

فقال على منبها عليهما فى ذلك :

كلمـــــا غَنّـــى بنَـــــان "إسْـــــمعى أو خَبّرينَـــا "

أنشـدتْ فَضْـــلٌ " ألا حيـــ ـــــتَ عنـــا يـــا مَدينَـــا"

عـــارضتْ معنـــىً بمعنـــى والندامـــى غَافلونَـــا

أحســـنتْ إذْ لـــمْ تجاوبـــ ـــهُمْ ديـــارُ الظّاعِنينَـــا

واسْـــتعاد الصـــوتُ مَوْلَـ هـــا وحـــث الشّاربينَـــا

قلْـــتُ للمولـــىٰ وقَـــدْ دَا رَتْ حُمَيّـــا الكَـــأْس فينَـــا

ربّ صَـــوْتٍ حَسَـــن يُنْبـــ ـــتُ فـــى الـــرأْس قُرونَـــا (١)

إذن فقد كانت مجالس الغناء التى تعقد ليلا فى قصور الخلافة تجمع الخلفاء والوزراء والمغنين والجوارى والخلعاء ، وكثيرا ما تحدث منافسات بين الجـــوارى فى ميادين الغناء والطرب وقرض الشعر ، فإذا رأى الخليفة أمرا طلب من ندمانـــه من الشعراء أن ينظموا فيه شعرا ، ومما روى فى ذلك من طرائف أن المتوكل دخل على جاريته قبيحة ، فوجدها قد كتبتْ على خدّها بالمسْك اسم الخليفة (جعفر) فلما رآها قبل خدها ، وقال : ما رأيت سوادًا فى بياضٍ أحسنَ منه فى ذلك الخَدّ ، وكانت فضلٌ واقفة ، فقالتْ على لسان الخليفة وقيل إن الخليفة طلب منها ذلك :

وكاتبةٍ بالمسْكِ فى الخَـــدّ جعفَـــرًا بنفْسى خطَّالمسْك من حيث أثّـــرا

لئن أودعَتْ سطرًا من المسْك خدَّهـــا فقد أودَعتْ قلبى من الحُبّ أسْـــطُرا

فيا مَـــنْ لمملـــوكٍ تملّـــكَ مالكـــاً مطيعاً لـــه فيمـــا أسَـــرَّ وأظْـــهَرا

(١) العمدة لابن رشيق ٢/ ٨٧ ، وديوان على بن الجهم / ١٨٥ .

ويا منْ مُناها فى السريرةِ جعفـرٌ سَقىٰ اللهُ منْ سُقيا ثنايَاكِ جَعْفَـرا[1]

فالخليفة ــ وهو الملك ــ يقع مملوكا مطيعا لجاريته المملوكة لـــه بسـبب تأثيرها فى نفسه وما أودعت من أسطر الحب فى قلبه ، فالجارية الشـــاعرة إذن ــ سواء ــ أكانت فضلا أم محبوبة أم قبيحة أم مظلومة أم عريب ــ تعلم ما يدور بخلد الخليفة المتوكل وما يطويه فى جوانحه من حب لجاريته تلك ، فهذا الشعـــر علـى بساطته معبر عن خلجات الخلفاء ومصور لما يدور فى القصور من غرامياتهم .

وقد تنشئ الجارية شعرا ركيكا فى الخليفة فيعجبه ، ويأمر به فيغنى ، ومن ذلك ما روى عن فضل حين أهديت إلى المتوكل ، فسلها : أشاعرةٌ أنتِ ، فقـــالت : كذا زَعم من باعَنى واشْتَرانى ، فضحكَ وقال أنشدينا شيئا من شعرِك ، فأنشدته :

استقبلَ الملْـكَ إمـامُ الـــهدَى عـــامَ ثـــلاثٍ وثَلاثِينَـــا
خلافـةً أفضـتْ إلـى جَعْفَـــر وهْو ابـْنُ سَـبْعٍ بعـدَ عشْرينَـا
إنـا لـنرجُو يـا إمـامَ الـــهدى أن تملِـــكَ النـــاسَ ثَمانينَـــا
لا قـدَّسَ الله امْـرَءا لـم يقُـــلْ عنـدَ دُعـائى لـكَ : آمِينَـــا[2]

فاستحسن المتوكل هذه الأبيات ، بل وكافأها بخمسة آلاف درهـــم ، وأمـــر عريبا أن تغنيها . بينما الأبيات لاحظ لها من فنية الشعر إلا إقامة الـــوزن والقافيـــة فالشعر حين يرصد الوقائع بالأرقام مثل : (عام ثَـــلاث وثَلاثيـــن) ، وهـــو ابـــن (سبع وعشرين) ، وتدعو للخليفة بطول العمر حتى سن (الثمَـــانين) ، يتحـــول إلى نظم ودعاء لا عاطفة فيه ولا شاعرية ، لكن الجارية قد عـــبرت عمـــا يتمنـــاه

---

(١) القصة والخبر والأبيات فى الأغانى ١٩/٢١٠ ، ولمظلومة فى العقد ٦/٤٠٢ ، ولمحبوبة فى المستظرف للسيوطى / ٦٥ ، ولقبيحة فى المحاسن والأضداد للجاحظ / ٢٥١ .

(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ١٩/ ٣٠٢ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى / ٣٥٣ ، وفى نســاء الخلفاء لابن الساعى / ٨٦ ، ٨٧ ، وفـــى فـــوات الوفيـــات ٢/ ٢٥٥ ، وفـــى الإمـــاء الشواعر للأصفهانى / ٥٩ ، وفى الدر المنثور ٢/ ٤٣٢ .

الخليفة وما يأمله وما يدور فى نفسه من أحلام ، ولذلك فقد استحسنها الخليفة وكافأها عليها .

وطبيعى أن يكون شعر فضل صورة صادقة لما يدور فى قصر المتوكل من أحداث فتحل بذلك فى نفسه منزلة خاصة ، حتى إنها كانت تقضى حوائج الناس عنده ، قال ابن المعتز : " ... إن فضلا الشاعرة كانت فى نهاية الجمال والكمال والفصاحة وجودة الشعر ، كانت تتشيع وتتعصب لهذه العصابة من الناس ، وتقضى حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والأشراف " (١) .

ولقد كان من المألوف والعرف الأدبى أن يتبارى الشعراء والجوارى فى قصور الخلفاء فى إدارة مطارحات شعرية متنقلة بينهم تحت اسم الإجازة ، وهى أن يكون هناك موضوع شعرى يبدأ فيه شاعر ببيت، أو شطر من بيت ، فيأمر الخليفة أحد الشعراء أو الشواعر من الحضور بإكماله بشطر أو بيت أو عدة أبيات ، فيكون ذلك بمثابة الإجازة والإقرار للبيت أو الشطر الأول ، وقد راج هذا اللون فى قصور خلفاء بنى العباس ولا سيما قصر المتوكل لكثرة جواريه الشواعر ، ولقد كان من أبرزهن فى فن الإجازة فضل العبدية ، ومثال ذلك ما روته بنان الشاعرة قالت : توكأ المتوكل على يدى ويد فضل ، وقال : أجيزا قول الشاعر :

تعلمتُ أسبابَ الرِّضَا خوفَ سخطِهِ ... وعلّمنى حبى له كيفَ يغْضَبُ

فقالت فضلٌ مُجيزةً :

يصُدُّ وأدنُو بالمودّةِ جَاهدا ... ويبعدُ عنّى بالوصَال وأقْرُبُ (٢)

فقالت بنان أيضا مجيزة :

وعندى لها العتبَى على كلِّ حَالةٍ ... فما منهُ لى بدٌّ ولا عنْهُ مَذْهَبُ

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز / ٢٠٠ .

(٢) الخبر والبيتان فى الأغانى (الهيئة) ١٩/ ٣٠٤ ــ ٣٩٥ ، وفى بدائع البدائه / ١٥٠ ، وفى الوافى بالوفيات ١٠/ ٢٩٠ .

وواضح من هذه الإجازة أنَّ كلا من البيتيْن إضافة وتوضيح للمعنى الأول فى بيت الخليفة ، وكلها تدور فى محور الحب والصدّ والمـــوَدّة والوصَـــال والعتَـــاب وغيرها من معانى الهوى وألفاظ الغزَل .

هذا اللون من الإنشاءِ البديع الذى يعتمد على ســـرعة البديهـــةِ والارتجـــال والقدرة الفنية والتمكن من صَنْعة الشعر ، يُوجِبُ علينا التوقفَ عندمســـألة نقديـــة قديمة هى قضية الطبع والتكلف ، وما يطلقه النقـــاد الآن علـــى الشعـــراء ، هـــذا مطبوع وذلك مصْنوع ، وكان أول مَنْ أثار هذه القضية قديما هو عمرُو بْـــن بحْـــر الجاحظ حيث قال : " وكل شئ عند العرب فإنما هو بَديهةٌ وارْتجال ، وكأنه إلـــهامٌ وليس مُعاناة أو مكابدةٌ ولا إحالة فكْر ولا استعانة ، فما هو إلا أن يصرف وَهْمَهُ إلى جُملة المذْهب ، وإلى العمود الذى إليه يقْصد ، فتأتيهِ المعانى أرْسَالاً ، وتَنْثَالُ عليـــه الألفاظُ انْثِيالاً " (١) .

ومرة أخرى يفرق بين الشعراء المطبوعين والمصنوعيـــن ، فيقـــول عـــن المطبوعين " الذين تأتيهم المعانى سَهْواً ورَهْواً ، وتنثال الألفاظ عليهم انثيالا " (٢) ، فالطبع عند الجاحظ أن تسيل الألفاظ فى المعانى الخِصْبة فى سهولة وانْسِيابيّة وتتابُع وتدفقٍ بلا مُعَاناة فى رصْفها أو مُكابدةٍ فى نظْمها أو كدِّ فكرٍ أو إعمالِ ذهْن .

ثم أثار مسألة الطبع بعدهُ ابنُ رشيق القيروانى حيث قال : " ومـــنَ الشعـــر مطبوع ومصنوع فالمطبوعُ هو الأصل الذى وُضِع أولا وعليه المَـــدَار " (٣) ، ثـــم تناول قضية البديهَةِ والارْتجال فقال : " البديهةُ ..... هى الارتجالُ وليستْ به ، لأن البديهةَ فيها الفكـــرةُ والتـــأييدُ والارتجال ما كان انهمارًا وتدفّقًـــا لا يتوقـــفُ فيـــه

---

(١) الجاحظ فى كتابه البيان والتبين ٣/ ٢٨ .

(٢) السابق ٢/ ١٣ ، تثنال : من أنثال عليه القـــول ، تتـــابع وكثُـــر فلم يـــدر بأية يبـــدأ (اللسان ثول ١/ ٥٢٣) . رهوا : مـــن رهـــا الشـــىء رهـــوا سـكن ، وعيـــش ره خصيب سكن رافه ، والرهو السريع ، وجاءت الخيـــل رهـــوا أى متتابعـــة (اللســـان رها ٣/ ١٧٥٨ ــ ١٧٥٩) .

(٣) العمدة لابن رشيق ١/ ١٢٩ ،

قائلُه " [1] . ثم تناول حد البديهة فقال : " وأما البديهة فيعد أن يفكر الشاعر يسيرا ، ويكتب سريعا إن حضرت آلة ، إلا أنه غير بطئ ولا متراخ ، فإن أطال حتى يُفرِط أو قام من مجلسه لم يعد بديها " [2] .

وواضح أن الحسنَ بن رشيق يتفق تماما مع الجاحظ فى قضية البديهة والارتجال ، فقد رأى كلاهما أنّ البديهةَ هى استحضار الفكرة فى سُرعة ، والارتجال أن يسيلَ الشعر وينهمرَ ويتدفقَ فى هذه الفكرة سريعاً رتيبا بطريقة آلية بلا تعمُّل أو تكلُّف .

وهذه القضية معروفة فى أدبنا العربى منذ الجاهلية ، إلا أنها لم تنتشر فى شكلها الرسمى والاسمى (الإجازة) إلا فى قصور خلفاء العصر العباسى ، فقد أخذت شكل الطرائف الأدبية ، والمباراة الفنية لاستظهار القرائح ، وبدائع البدائه كما سَمَّاها علىٌّ بن ظَافر .

وقد صَورت هذه الإجازةُ جانباً من جوانب حيَاة الخلفاء فى القصور وطرائفهم ومشاعرِهم الخاصة تجاه محبوباتِهم من الجوارى والقيان ، وقد برزت فضل فى هذا الميدان وصور شعرُها جانبا من ذلك فى صورتيْن :

(١) إجَازاتها للشعراء : من ذلك ما أجازته لعلىّ بن الجهم ، فقد أمره المتوكل أن ينشئ بيتا لتجيزه فضل ، فقال على : أجيزى يا فضل :

لاَذَ بـــها يشْتَكـــى إليـــهَا فلـم يجـدْ عندهَـا مـلاَذا [3]

فأطرقتْ فضل هنيهة ثم قالت :

فلـمْ يـزَلْ ضارعـًا إليـها تَـهْطل أجفانُـه رَذَاذَا

---

(١) العمدة ١/ ١٨٩ .

(٢) السابق ١/ ١٩٢ .

(٣) البيت لعلى فى ديوانه / ١٣٠ .

فعـــاتبوهُ فـــــزادَ عشْقـــــا فمـــاتَ وجْـــدًا فكـــانَ مَـــاذا ؟ [1]

فطرب المتوكل لسرعة بديهتها وأمر لها بمائتى دينار ، وأمر عريبا فغنت به .

والخبر والأبيات تدور ــ كما نرى ــ فى إطار الوجد والشكوى منها إليـــها والضراعة والبكاء والعتاب ، وزيادة العشق حتى الموت ، وغير ذلك مـــن معـــانى جانبية مألوفة فى هذا المضمار .

ولما انتشر فن الإجازة بين شعراء القصور العباسية ، أصبحت فضل تجيز أىَّ بيتٍ يلقى عليها ارتجالا من شاعر ما فيعجبها ، فتتبرى على الفور تـــرد عليـــه وتجيزه بلا أمر من أحد ، ومن ذلك ما رَواه أحمد بن أبى طاهر قال : ألقى بعـــض أصْحَابنا على فضْل الشاعرة :

ومُسْـــتفْتح بـــابَ البـَلاء بنظْـــرة تزود منها قلبُـــه حســـرةَ الدهْـــر

فأجازته قائلة :

فو الله ما تَدْرى أتَدْرِى بما جنَـــت على قلبهِ أم أهلكتْه وما تَـــدْرِى [2]

وألقى عليها أبو دُلف القاسم بن عيسى :

قالوا : عشقتَ صغـــيرةً فأجبتُـــهمْ أشهىٰ المطى إلىَّ ما لـــمْ يُرْكَـــبِ

كـــمْ بيـــنَ حبّـــة لؤلـــؤٍ مثقوبـــةٍ نُظِمَتْ وحَبّـــةِ لؤلـــؤٍ لـــمْ تثقَـــبِ

فقالت فضل مجيبة له :

إن المطيـــةَ لا يلَـــذُّ ركوبُـــها ما لـــمْ تذلـــلْ بالزّمـــام وتُرْكَـــبِ

---

(١) الخبـــر والأبيات فى الأغانى (الهيئة) ١٩/ ٣١٢ ، ٣١٣ ، وفى نساء الخلفاء / ٨٧ ، وفى بدائع البدائه / ١٣٩ ، وكذلك فى المستطرف للسيوطى / ٥٢ ، وفى المنتظم لابـــن الجوزى ٥/ ٧٠٦ ، والبيتان بلا خبر فى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٣ .

(٢) الخبر والبيتان فى الأغانى (الهيئة) ١٩/ ٣٠٥ .

والدرّ ليس بنافعٍ أصحابَهُ ... حتى يولَّفَ للنظامِ بمثقبِ (١)

فكلاهما يتحدث هنا عن طريق التشبيه المركّب عن المعشوقة الصغيرة وتشبيهها بالمطية الذلول وتارة بحبة اللؤلؤ الخام والمثقوبة المؤلفة فى نسق العقد المنظوم ، وإن كانت الأبيات توحى بالفحش ، لكنه ليس بغريب فى عالم الجوارى والقيان .

وقد تدور الإجازة فى مجال الشعراء فى شكل حوار دائر شبيه بالأداء المسرحى فى العصر الحديث ، حيث يقول شاعر شطرا أو بيتا ، ثم يكمل الآخر البيت أو يأتى ببيت آخر وهكذا يدور الحوار كأنه على خشبة المسرح .

وقد كان لفضل دور كبير فى هذا اللون من الإجازة حيث دار هذا الحوار المسرحى بينها وبين صاحبها سَعيد بن حميد حينما قال لها : أجيزى يا فضل :

من لمحبٍّ أحبَّ فى صِغَرِهْ ... فصار أُحْدوثةً على كِبَرِهْ

فقالت مجيزة ذلك : .....

فقال سعيد :

مِنْ نظَرٍ شقَّهُ وأرَّقَهُ ... فكانَ مبدا هواهُ من نظَرِهْ

فقالت فضل : .....

لولا الأمانِي لماتَ من كمَدٍ ... مرِّ الليالِي يزيدُ فى فكَرِهْ

ليسَ له مُسْعِدٌ فيُسْعِدُهُ ... بالليل فى طوله وفى قِصَرِهْ

سقمٌ يُبلى فلا حَراكَ به ... والروحُ فيما أرىٰ علىٰ أثَرِهْ (٢)

---

(١) الخبر والأبيات فى الأغانى (الهيئة) ١٩/ ٣٠١ ، وعنه نقل ابن الساعى فى نساء الخلفاء / ٨٦ ، وفى المستطرف / ٥١ ، وفى الإماء الشواعر / ٥٠ ـ ٥١ ، وفى منتظم ٥/ ٧٠٦ .

(٢) والأبيات فى الإماء لأبى الفرج الأصفهانى / ٦٥ ، ٦٦ ، وفى الأغانى للأصفهانى ١٠/ ٨٨ ، وعنه نقل ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٤ .

وهذا أيضا معنى من معانى الغزل العذرى الذى كان رائجا فى عصر بنى أمية حيث يبدأ المحب بالنظرة العجلى ثم يتعلق بالأمانى حتى يكاد يموت من كمه ليلا ونهارا حيث يبلى جسمه وينهزل إلى أن تزهق روحه على أثر ذلك .

والحق أن الإجازة نمط أدبى طَريف ، صوّر الجانبَ الوجدانى فى قصور الخلفاء العباسيين ، ولذلك فإن المتوكل ــ خاصة ــ لم يترك فرصة تجمعُه بالشعراء أو الشاعرات إلا أمر أحدهم بإجازة بيت أو شطر من بيت ، حتى جعله مجالا لاختبار الجوارى الشواعر ليتأكد من شَاعريّتهنّ وسرعة بديهتهنّ ، فقد عُرِضَتْ عليه جارية ، فقال لأبى العيناء (محمد بن القاسم بن خلاد) ، وكان شاعرًا ضريرًا فكِهًا ظريفاً : هذه عُرِضَتْ علىَّ أنها شاعرة ، فقلْ شيئا لتجيزَهُ ، فقال أبو العيناء :

أحْمَدُ اللهَ كَثِيرًا ....

فقالت : ..... حِينَ أنْشَاكَ ضَرِيرًا

فقال : يا أمير المؤمنين : قد أحسنت فى إساءتها [1] .

(٢) وقد ترسم فضل صورة أخرى من صور الحياة فى قصر الخليفة المتوكل وذلك عن طريق قرض الشعر على لسان غيرها ، فقد تصوغ شعرا على لسان جارية من جوارى القصر ، وذلك لاسترضاء الخليفة ، فقد أغضب المتوكلُ يوما جاريتَه قبيحةَ ، فردّت عليه بما أغضبَهُ ، فرماها بمخدّة كانت فى يدِه فأصابت عينيْها فأثرتْ فيها ، فتأوهتْ وبكَتْ ، فخرج المتوكل وحُم من الغضَب ، فبصر بعلى بن الجهم فأمره أن يقولَ فى علّتِه هذه شيئا من الشعر ، فقال :

تنكّرَ حالَ علّتِىَ الطبيبُ وقال أرىٰ بجسمكَ ما يرِيبُ

جَسسْتُ العرقَ منك فدلّ جَسّى على ألَم له خبر عَجيبُ

وقلتُ أيا طبيبُ ، الهجرُ دَائى وقلبى يا طبيبُ هو الكئيبُ

---

(١) ديوان أبى العيناء ونوادره / ٢٧ .

فحـرك رأسـه عَجبًـا لقولـي ... وقال الحـبّ ليـسَ لـه طبيـبُ

فأعجَبنى الـذى قـد قـالَ جـدًّا ... وقلتُ بلَـى إذا رضِـى الحبيـبُ

فقال هـو الشّفـاء فـلا تقصـرْ ... فقلتُ أَجَلْ ، ولكـنْ لا يُجِيـبُ [1]

" ثم أمرت قبيحةُ فضلا الشاعرةَ أن تقول على لسانها شعرا فى هذه الواقعة ، فقالتْ فضل :

لأكتمنَّ الذى فى القلْب منْ حُـرقٍ ... حتى أموتَ ولم يعلمْ بـه النـاسُ

ولا يقالُ شكَا مَـنْ كـان يعشقُـه ... إن الشكاةَ لمن تهوىٰ هى اليـاسُ

ولا أبوحُ بشـيءٍ كنـتُ أكتمُـه ... عند الجلوسِ إذا ما دارَت الكاسُ[2]

فكأن قبيحة هى الشاعرة بالموقف فستكتم قسوة عاشقها ولن تبوح بها فـى مجلس الشراب حينما تدور الكأس على الندامى فى قصر الخليفة .

أما على بن الجهم فقد وصف مشاعر المتوكل وعلت وآلام قلبه بسبب حبه لجاريته قبيحة ، والجب ليس له طبيب ، فهو يتمنى رضاها .

ولذلك فإن المتوكل حينما سمع هذه الأبيات قال : أحسنتِ يا فضل ، وأمـر لها بعشرينَ ألف دِرْهم ، ودخل إلى قبيحةَ فترضّاها .

ومرة أخرى تعبر فضل عن مشاعر الخليفة حيال جارية عرضت عليه فلـم يشْتَرِها ولكنها عَلِقَها ، فلما تولى الخلافةَ سأل عنها فـأُعْلِمَ أنـها بِيعـتْ وأولدهَـا مولاها ، فقال لفضل قولى فيها شيئا ، فقالتْ :

علـمَ الجمَـال تركتنـى ... فـى الحـب أشـهَر مـنْ علَـم

ونصيبـى يـا مُنْيتـى ... غـرَض المظنّـة والتُّـهَمْ

---

(١) ديوان على بن الجهم / ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) الأغانى (دار الكتب) ١٠/ ٢١٤ ــ ٢١٥ .

فـــارقْتَنى بعْـــــدَ الدنـــــوّ وقَصِـــرْتَ عنـــدِى كـــالحُلُمْ

فلـــو أنَّ نفْســـى فـــــارقتْ جسْـمى لفقـــدكَ لـــم تُلَـــمْ

مـــا كـــانَ ضـــرَّكَ لـــو وصَلْـــ ـــتَ فخـــفَّ عـــنْ قلْبـــى الألَـــمْ

برسَـــــــالةٍ تهدينـــَـــــها أو زَوْرة تحـــــتَ الظلَـــــمْ

أولا فَطِيفِـــى فـــى المنـــَـــا مِ فـــلا أقـــلَّ مـــن اللَّمَـــمْ

صلَـــةُ المحِـــبّ حبيبـــَـــهُ الله يعلمـــُـــه كـــــرَمْ (١)

وفى رواية أخرى لصاحب الأغانى قال : حدثنى أحمد بن أبى طاهر ، قال ألقيت أنا على فضل الشاعرة :

علـــَمَ الجمـــَال تركتَنـــــى بـــهواكَ أشـــهرَ مـــن علَـــمْ

فقالت على البديهة :

وأبحتَنـــى يـــــا ســـيدى سُـــقْماً يجـــلّ عـــن السَّـــقَمْ

وتركتَنـــى غرَضـــًا ـ فديـــــ ـــتـكَ ـ للعـــــواذلِ والتَّـــهَمْ

صلـــةُ المحـــــبّ حبيبـــَـــه الله يعلَمـــُـــه كـــَـــرَمْ (٢)

فالنص بروايتيه يعبر عن ندم الخليفة على تفريطه فى الجارية وعن مـــدى لوعته بسبب فراقها حتى ليوشك أن يقضى ، ثم هو يتمنى صلة فى الحقيقة بـــزورة أو فى الحلم أو رسالة تهدينها إليه ، فالوصل كرم خلق .

إذن فأشعار فضل تصور جانبا من جوانب الحياة العاطفية فى قصر المتوكل " الجعفرى " هو حب الخليفة للجوارى وتأثيرهن على قلبه ونفسه ، كما تصور مـــا

---

(١) الأغانى (الهيئة) ١٩/ ٣٠٢ ــ ٣٠٣ ، فطيفى : فعل أمر من طاف يطيف إذا جاء فى الخيال أو النوم .

(٢) السابق ١٩/ ٣٠٥ .

كان يدور فى مجـــالس الشـــراب حيـــث تـــدور كئـــوس الـــراح وتصـــدح آلات الموسيقى ويغنى المغنون بأشعار الجوارى التى يختارها الخليفـــة أيضـــا للغنـــاء ، حيث كان يأمر عريبا أن تغنى أو بنان بن عمرو المغنى والموسيقار .

كما نلاحظ أن هذه الأشعار كلها تدور كلها حول الحب والوصـــل والصـــد والبعاد والعذل ، والتزاور والتراسل والنظرة العَجْلىٰ والفكَر ، والمـــرَض والطـــب النفسى .... وما إلى ذلك من معانى الرومانسية الحالمة ، هذا إلـــى جـــانب شغـــف الخلفاء بالجَمال الحسّى وألوان الزينةِ والحليّ والجواهر واللآلئ المثقوبة وكيف يكنى بها عن الجارية الثيّب ، واللؤلؤ الذى لم يُثقف ، ويكنى به عن الجَارية البكـــر ..... وهكذا مما كان يشغل أذهان خلفاء بنى العباس ويملأ عليهم حياتـــهم المترفـــة فـــى قصورهم الفاخرة .

مجموع أشعار فضل

(١) كتبتْ فضلٌ إلى أحدِ جلساءِ الخَليفة : (طويل)

١- نعمْ ، وإلَهِي ، إنّنى بـــكَ صَبَّـــةٌ فهلْ أنتَ يا مَنْ لا عَدمتُ مُثِيـــبُ

٢- لمنْ أنتَ منه فى الفؤادِ مصـــوَّرٌ وفى العينِ نُصْبَ العينْ حينَ تغيب

٣- فثقْ بوِدَادٍ أنـــتَ مظـــهرُ مثلِـــهِ على أنَّ بى سُقْماً وأنـــتَ طَبيـــبُ

التخريج :

الأبيات الثلاثة فى نهاية خبر برواية أبى دهمـــان وعبـد الله بـن نصـر المروزى فى الأغانى ١٩/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

والخبر فى الأغانى مؤداه أن أحد جلساء الخليفة ممن كانت فضل لا تطلعه على حبها له ، كتب إليها يقول :

ألا ليتَ شعرِى فيكِ هل تذكرينَنِـــى فذكراكِ فى الدنيـــا إلـــىَّ حَبيـــبُ

وهلْ لى نصيبٌ فى فؤادِكِ ثـــابتٌ كما لَكِ عندِى فى الفؤادِ نَصيـــبُ

ولستُ بموصولٍ فأحْيَـــا بـــزَوْرةٍ ولا النفسُ عند اليأسِ عنكِ تَطيـــبُ

فكتبت فضل هذه الأبيات الثلاثة ترد عليه .

الشرح :

١ ــ وإلهى : قسم ــ صبة أى عاشقة .

البيت إجابته له إلى طلبه منها حيث يطلب فى ثلاثة الأبيات أن تذكره وأن يكون له نصيب فى قلبها أو أنْ تزورَهُ فيحيا بزيارة منها فتطيب نفسه .

فالبيت تقسم فضل أنها عاشقةٌ له فهل يجازيها على صبابتها ؟

٢ ــ فهو مصوَّرٌ كائنٌ فى فؤادِها مِلْءُ عينيها حتى فى غيابه .

٣ ــ ثم تطلب منه الثقة فى ودادِه فهو طبيب سقمها .

(٢) كتبت فضل تعتذر إلى أبى يوسف بن الدقاق الضرير وأبى منصور الباخرزى : (طويل)

١- وما كنتُ أخشَى أن تروْا ليَ زلّةً ولكن أمرَ الله ما عنْـــه مذَهْـبُ

٢- أعوذُ بحُسْنِ الصَّفْحِ منكمْ وقبلَنَـــا بصفح وعفو مَـــا تعـوَّذَ مذْنِـبُ

التخريج :

البيتان فى خبر برواية محمد بن خلف بن المزربان فى الأغانى ١٦/ ٣٠٧

الخبر مؤداه أن محمد بن خلف بن المزربان قال : حدثنى أبو يوسـف بـن الدقاق الضرير ، قال : سرت أنا وأبو منصور الباخرزى إلى منزل فضل الشـاعرة فحجبنا عنها ، وانصرفنا وما علمت بنا ، ثم بلغها مجيئُنَـــا وانصرافُنَـــا ، فكرهـت ذلك وغمها ، فكتبتْ إلينا تعتذر (البيتين) .

فكتب إيها أبو منصور الباخَرْزِى :

لئن أُهْدِيتْ عُتباكَ لـــى ولإخْوتِـى فمثْلُكِ يا فضْـلَ الفضَـائل يُعْتَـبُ

إذا اعتذَر الجَانى محَا العذرُ ذنبَـــهُ وكلُّ امرئٍ لا يقبَل العـــذْرَ مُذْنِـبُ

الشرح :

١ ــ أى إنها تعتذر إليهما وتقر أن حجبهما عنها زلة وخطأ .

٢ ــ ثم تطلب العفو والصفح عنها ، ومن قبل ما تعوذ مذنب بالعفو والصفح .

---

(٣) وقالت فضلٌ مُجيزةً أيضًا : (طويل)

١- يَصُـدّ وأَدنُـو بـالمودّةِ جَـاهداً ويبعدُ عنى بالوِصَـــال وأقـرُبُ

التخريج :

البيـت والخبـر برواية جعفر بن قدامة فى الأغـانى ١٩/ ٣٠٤ ــ ٣٠٥

والبيت برواية الفضل بن عباس الهاشمى فى بدائع البدائه / ١٥٠ ، وبتاء المضارع فى تصد ..... وتبعد ..... فى الوافى بالوفيات ١٠/ ٢٩٠ .

البيت برواية جعفر بن قدامه حتى الفضل بن العباس الهاشمى عن فضل وعن بنان الشاعرة قالت : توكأ المتوكل على يدى ، ويد فضل ، وقال أجيزا قول لشاعر :

تعلمتُ أسبابَ الرّضَا خوفَ سُخْطِهِ وَعلّمَهُ حبّى لـهُ كيفَ يغْضَبُ

فقالتْ فضلٌ (البيتَ) فقلتُ أنا :

وعْندى لها العُتْبَىٰ على كلِّ حالةٍ فما منْه لى بُدٌّ ولا عَنْهُ مذْهَبُ

الشرح :

وبيت الشاعرة مؤداه : أنه تعلم كيف يُرْضِيها لئلا تسخَط عليه بينما علّمها حبه كيف تغضب عليه .

وبيت فضل معناه أن بينهما تناقضا دائما فهى تدنو منْه بمودّتها جاهدةً وهو يصد عنها ، وهو يبعد عنها فلا يصلها قط بينما تقرب هى منْه دائما .

وبيتُ بَنان : وهى عندَها له عُتْبىٰ دائما فليس منهُ بدٌّ ، ولا مذهبَ لها عنْهُ .

---

(٤) قالت فضل تجيب أبا دلف القاسم بن عيسى : (كامل)

١- إن المطيَّةَ لا يَلُذُّ ركُوبُها ما لمْ تَذَلَّلْ بالزِّمَامِ وتُرْكَبِ

٢- والدُّرُّ ليسَ بنافعٍ أصْحَابَهُ حتّىٰ يؤلَّفَ للنظَامِ بمْثَقِبِ

التخريج :

البيتان فى خبر برواية محمد بن خلف بن المزربان فى الأغانى ١٩/ ١٥٨

وعنه نقل ابن الساعى فى نساء الخلفاء / ٨٦ مع رفع الروى وهو مكسور مخفوض وكذلك نقل عنه السيوطى فى المستطرف / ٥١ مع رفع حركة الروى بعد الكسر والخبر والبيتان فى الإماء الشواعر لأبى الفرج الأصفهانى ٥٠ ــ ٥١ والبيتان وبلا خبر فى أعلام النساء لعمر كحالة ٤/ ١٧٢ وبأبيات ثلاثة يروى الخبر فى المنتظم لابن الجوزى ٥/ ٧٠٦ والثانى فيه بروايتين هما :

كم بينَ حَبّة لؤلؤ مثقُوبَةٍ لُبستْ وحبّةِ لؤلؤ لم تُثْقَبِ

والحبُّ ليسَ بنافعٍ أصْحَابَهُ ما لَمْ يؤلَّفْ للنظَامِ ويُثْقَبِ

الخبر برواية الأصفهانى فى أغانيه ملخصة أن فضل الشاعرة جلبت من البصرة فاشترها رجل من النخاسين بعشرة آلاف درهم ثم أهديت إلى المتوكل ، فكانت تعارض الشعراء فى مجلسه ، فالقى عليها أبو دلف لقاسم بن عيسى العجلى قوله :

قالوا عشقتَ صغيرةً فأجبتُهُمْ أشْهَى المطِىّ إلىَّ ما لَمْ يُرْكَبِ

كم بينَ حبّة لؤلؤٍ مثقوبَةٍ نُظِمَتْ ، وحبة لؤلؤٍ لَمْ تُثْقَبِ

فأجابته فضل بهذين البيتين .

الشرح :

١ ــ يقصد بالمطية هنا : المرأة فهى لا تكون كما يهوى الرجل إلا بعد أن يسبق زواجها فتصبح مذللة الركوب .

٢ ــ ثم مثلت لهذا الأمر بالبيت الثانى فالمرأة كالدر لا يصلح للاستخدام إلا بعد أن يثقب بمثقب ويؤلف فى نظام ونسق معين .

والبيت فى فوات الوفيات برواية :

والحب ليسَ بنَافع أربابَه ما لَمْ يؤلَّفْ بالنظَام ويُثْقَبِ

وفى نساء الخلفاء برواية :

والحُبّ ليسَ بنَافع أرْبَابَه حتى يُؤلَّفَ بالنظَام ويُثقَبِ

وقد اخترت رواية الأصفهانى لأن الدر هو الذى يثقب بمثقب وكثيرا ما شبهت المرأة البكر بالدر الخام والثيب بالدر المثقب . كما أنه لا وجه للحب هنا وفضل ترد لى قول أبى دلف :

كم بينَ حَبّة لؤلؤٍ مثقوبَةٍ نظمتْ وحَبّةِ لؤلؤ لمْ تُثقَبِ

وبيت أبى دلف هذا يضاف إلى بيتى فضل فى رواية ابن الجوزى فى المنتظم ٥/ ٢٠٦ ولكنه فى المعنى برهان على صحة رأى أبى دلف .

---

(٥) كتبتْ فضلٌ إلى سَعيد بْن حُميد وقدْ بلغَها أنه عَشِق جَارية من القِيان : (منسرح)

١- يا عَالىَ السِّنِ سَيِّءَ الأدَبِ شبْتَ وأنتَ الغلامُ فى الطَّرَبِ

٢- ويحَكِ إن القيانَ كالشَّرَك المنْـ ـصُوبِ بين الغُرور والعَطَبِ

٣- لا يتصدَّيْن للفقير ولا يطْلبُنْ إلا معَادنَ الذَّهَبِ

٤- بينَا تشَكَّى هوَاكَ إذ عَدَلَتْ عن زَفَراتِ الشكْوىٰ إلى الطَّلَبِ

٥- تلحَظَ هذَا وذاك وذَا لحْظَ مُحِبٍّ ، وَفِعْلَ مكْتَسِبِ

التخريج :

الأبيات الخمسة فى خبر برواية إبراهيم بن القاسم فى الأغانى ١٩/ ١٦٦ وبخبر أطول برواية أحمد بن الحارث البغدادى فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦ ــ ٤٢٧ ونقل عنه عمر فروخ فى تاريخ الأدبَ العربى ٢/ ٣٢١ ، وبحذف البيت الثالث فى فوات الوفيات ج ٢/ ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .

وُمؤدَّىٰ الخَبر أن فضلاً كانت تحب سعيدَ بْنَ حُميد وهو من أشد الناس نصَبا وانحرافاً عن آل البيت بينما هى تتشيع لهم ، ثم بلغها أنه عشِق جاريةً من القيان ، فكتبتْ إليه هذه الأبيات .

الشرح :

١ ــ الخطابُ لسَعيد بن حميد لتأنيبه على سُوء تصرفه فى العشْق والصبوة رغم كبَرِ سِنّهِ وكأنه لما يزلْ غلاما صغيرا . البيت فى طبقات الشعراء وفى فوات الوفيات . . برواية :

[يا حَسن الوجْه ..... الغلامُ فى الأدبِ] .

٢ ــ تريد أن النساء تنْصُبُ شراكاً للرجال حتى تغر فتقع فيه فيؤدى بها إلى العطب والبيت فى فوات الوفيات برواية :

[... إن الشبابَ .... بين الغرورِ والكَذبِ]

وقد فضلت رواية الأغانى لصوابها المعنوى .

٣ ــ أى إن النساء لا يتبعن إلا الغنى صاحب الذهب والمال ويعزفن عن الفقير والبيت فى ابن المعتز برواية :

[لا يتصدّين للفقير ..... إلا مواضعَ الذهب]

٤ ــ أى أن المرأة بينما هى تشكو تجدها تطلب ما تريد . والبيت فى ابن المعتز وفى فوات الوفيات برواية :

[بينا تشكّى إليكَ إذ خرجَتْ من لحظاتٍ لشكوىٰ إلى الطّلَب] .

٥ ــ إن عادة المرأة تلاحظ هذا وذاك وذا بعين المحب بينما هى تفعل فعل المنتفع المكتسب . والبيت فى طبقات الشعراء برواية :

[تلحظُ هذَا وذاَ وذاَك وذَا لحْظَ مُحِبّ بعيْن مكتَسِب]

وفى فوات الوفيات :

[فلحظ هذا ولحظ ذاك وذا الـ ـلحْظ محب بعين مكتئب]

وقد فضلت رواية الأغانى لأنها أقدم وأقوم .

---

(٦) وكتبتْ فضلٌ إلى سَعيد أيامَ حبّهما ووَصْلِهما : (طويل)

١- وعَيشِك لو صَرّحْتَ باسمكَ فى الهوىٰ لأقصرتُ عن أشياءَ فى الهزْل والجِدّ

٢- ولكننـــى أبـــدى لـــهذَا مودَّتـــى وذاكَ ، وأخلُو فيكَ بالبثّ والوجْـــدِ

٣- مخافةَ أن يغْرِى بنا قولُ كـــاشِحٍ عدوًّا ، فيسعَى بالوصَال إلـــى الصَّـــدِّ

التخريج :

الأبيات الثلاثة بخبرها برواية عم الأصفهانى عن محمد بـــن القاســـم بـــن إبراهيم ابن المدبر فى الأغانى ١٩/ ٣٠٦ .

هذا الخبر فى الأغانى ملخصه أن فضل الشاعرة كتبت إلى صاحبها ســـعيد بن حميد أيام تواصلهما ومحبتهما هذه الأبيات الثلاثة فرد عليها بقوله :

تنامين عن ليلِي وأسهرُه وحْـــدِى وأنهىُ جفوُنى أن تبثكِ ما عنْـــدِى

فإن كنتِ لا تدرينَ ما قـــدْ فعلتِـــه بناَ فانظُرى ماذاَ على قَاتِلِ العمْدِ ؟

الشرح :

١ ــ وعيشك أى أقسم بحياتك لن أصرح باسمك لئلا أكفَّ عن هزْلى وجدِّى .

٢ ــ فأنت الحبيبُ الذى أُخلِصُ له حبى وأبثّه شَوْقى وإن تودَّدْتُ إلى هذاَ وذاك .

٣ ــ أبدى للناس مودتى لئلا يُغرِىَ الكاشحونَ بنا الأعداءَ فينقلب الـــودّ إلـــى صَـــدٍّ والوصل إلى بُعدٍ ونأْىٍ .

---

(٧) قالتْ تشكو وتتغزّلُ فى صَاحبها سَعيد بْن حُميد : (كامل)

١- الصبر ينقُـــصُ والسـقامُ يزيـدُ والـــدار نائيـــةٌ وأنـــتَ سَـــعيدُ

٢- أشكوكَ أم أشكُـــو إليـــكَ ؟ فإنَّـــهُ لا يســـتطيعُ ســـواهما المجْـــهودُ

٣- إنى أعوذ بحرمتِي بك فى الـــهَوى من أن يطاع لديكَ فـــىَّ حسَـــودُ

التخريج :

الأبيات الثلاثة فـــى خـــبر روايـــة محمـــد بـــن العبـــاس الـــيزيدى فـــى

الأغانى ١٩/ ٣١٧ وبحذف الثالث برواية أبى على الرَّازى فى نسَاء الخلفـاء / ٨٩ وفى تاريخ الأدب العربى فى الأعصُر العباسية لعمر فروخ ٢/ ٣٢١ والبيتان الأول والثانى فقط لفضل فى المستطرف للسيوطى ٥٤ نقلا عن الأغانى ١٨/ ١٦٥ وعجُز البيت الأول فيهما برواية (والدرا دانيةٌ وأنت بعيد ...) مرة أخرى .

الشرح :

١ ــ البيت برواية " ... وأنت بعيد " فى الأغانى وفى نساء الخلفاء وفى المستطرف وقد فضلْتُ " سعيد " للتورية التى بها ولمناسبة هذا العجز مع صدر البيت الثانى حيث تشكوه أم تشكو إليه ؟ وصدره برواية .... " والبلاء يزيد " فى المستطرف .

٢ ــ المجهود تريد نفسها مما بها من ألم البعاد وصاحبها مشكو ومشكو إليه .

٣ ــ أى إنها تعوذ بحرمتها فى الهوى من أن يطيع صاحبها حاسدا لها أو واشيا بها فيزداد بعدا وصدا .

وهذه الأبيات الدالية الثلاثة السابقة لفضل فى رواية اليزيدى فى الأغانى ١٩/ ٣٠٣ .

قال : كتب بعض أهلنا إلى فضْل الشاعرة :

أصبحتُ فردًا هائمَ العقْل ... إلى غَزال حسَن الشكْل

أفنى فؤادِى طولُ عهْدى بهِ ... وبعدُه منّى ومنْ وصْلِى

مُنية نفْسى فى هَوى فَضْلٍ ... أنْ يجمع الله بها شَمْلِى

أهواكِ يا فضلُ هوىً خالصًا ... فما لقلبى عنكِ منْ شُغْلِ

فأجابته فضل بهذه الأبيات الثلاثة .

---

(٨) وكان سَعيدٌ يهوىٰ فضلَ الشاعرةَ ، فعَزَم مرةً على سفَر ، فقالتْ لهُ : (بسيط)

١- كذبتَنى الودَّ أنْ صَافحْتَ مرتحِلاً ... كفَّ الفراقِ بكفِّ الصبْرِ والجَلَدِ

٢- لا تنكرنّ لهوى ولشوقٍ لو فُجِعَتْ بالشوقِ نفسُكَ لم تصبرْ علىٰ البُعدِ

التخريج :

البيتان فى زهر الآداب للحصرى القيروانى ٢/ ١٠٣٠ ونقل عنه عبد البديع صقر فى شاعرات العرب ص ٣١٢ .

الشرح :

١ ــ أى لقد كذبتَ فى ودكَ وصْدق حبكَ ، حيث ارتحلْتَ عنا ، وصبرْتَ وتجلّدْتَ، فكأن كفَّ الصبرِ والجلَد صافحَ كفَّ الفراقِ .

٢ ــ فلا تذكر الهوى والشوق ، فلو ذقتَه لم تصبرْ نفسك على البعد أو الفراقِ .

---

(٩) قالتْ فضلٌ تجيزُ بيتاً لعليّ بْنِ الجَهْمِ : (مخلع البسيط)

١- ولمْ يزلْ ضَارعًا إليها تَهْطِلُ أجفانُه زَذَاذَا

٢- فعاتبوه فزادَ عشقًا فماتَ وَجْدا ، فكانَ ماذَا

التخريج :

الخبر برواية المروزى عن محمد بن خلف عن الأصفهانى فى الأغانى (الهيئة) ١٩/ ٣١٢ ــ ٣١٣ ، وفى نساء الخلفاء ٨٧ وعن المروزى فى بدائع البدائه ص ١٣٩ والبيتان بلا خبر فى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٣ وعنه نقل عمر رضا كحالة فى أعلام النساء ٤/ ١٧٣ . والخبر برواية المروزى فى المستطرف للسيوطى ٥٢ وكذلك فى الإماء الشواعر ٦٢ وفى المنتظم لابن الجوزى ٥/ ٧٠٦ .

الخبر فى الأغانى وعنه نقل السيوطى فى نساء الخلفاء وفى بدائع البدائه لابن ظافر أن المتوكل قال لعلى بن الجهم : " قل بيتا وقل لفضل الشاعرة تجزه، فقال على : أجيزى يا فضل :

لاذ بها يشْتكِى إليها فلم يجدْ عندهَا مَلاَذا

قال : فأطرقت هنيهة ثم قالت : البيتين . فطرب المتوكل وأمر لها بمائتى دينـــار .

وبيت على بن الجهم فى ديوانه ص ١٣٠ .

وأمر غريب فغنت به .

الشرح :

١ ــ فى الأغانى صدره برواية ... (فلم يزل ...) .

أى ولم يزل العاشق ضارعا لمعشوقته تهمى عيونه دموعا .

٢ ــ صدر البيت فى نساء الخلفاء (فعاتبته فزاد عشقا ...) .

فعاتبه الناس أو الوشاة على بكائه ، فمات عشقا ، فماذا كان بعد ذلك ؟

---

(١٠) قالت فضل فى قبيحة جارية المتوكل أيضا ، وقد كتبت بالمسك على خدها اسم الخليفة المتوكل "جعفر" : (طويل)

١- وكاتبةٍ بالمسْكِ فى الخدِّ جعْفَـــرًا ... بنفْسِىَ خَطّ المسْكِ منْ حيثُ أثّرَا

٢- لئن أودَعتْ سطرًا من المسْك خدّها ... لقد أودَعتْ قلبى من الحبِّ أسْطُرَا

٣- فيا منْ لمملُـــوك تملّـك مالكًـا ... مطيعًا له فيمَـــا أسَـرّ وأظْـهَرا

٤- ويا منْ مناَها فى السّريرةِ جعفـــرٌ ... سقىٰ اللهُ منْ سُقْيا ثناياكَ جعْفَـــرَا

التخريج :

الخبر فى الأغانى برواية محمد بن خلف بن المرْزُبان ... أن قبيحة كتبت اسم جعفر بالمسك على خدها فرآها المتوكل ، فقبل خدّها ، وقال : ما رأيت ســوادا فى بياض أحسن منه فى ذلك الخد ، وكانت فضل واقفة فقالت هذه المقطعة .

وهو بحذف الثالث فى الأغانى ١٩/ ٢١٠ وهو برواية علـــى بـــن الجَـــهْم لمظلومة والأبيات الأربعة فى العقد الفريد لابن عبد ربه ٦/ ٤٠٢ والأبيات الأربعة لمحبوبة فى المستطرف للسيوطى ٦٥ ، ويقول صاحب الأغانى ١٩/ ٢١١ (وقـــد

رويت الأبيات الأولى لمحبوبة شاعرة المتوكل) يعنى هذه الأبيات الثلاثة. وتروى الأبيات لقبيحةَ فى المحاسن والأضداد للجاحظ / ٢٥١ ، وتروى الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ بغناء محبوبة أمام المتوكل فى أخبار النساء لابْن قَيّم الجَوْزية /٦٣ .

الشرح :

١ ــ " وكاتبة " أى ورب كاتبة والمقصود بالبيت هى قبيحةُ إحدى جوارى المتوكل ... والبيت برواية (بنفسِى سَوادُ المسْك) فى الأغانى ، وبرواية " مخط المسك " فى المستطرف ولعله تحريف " لخَط المسك " أى أفدى بنفسى خط المسك من حيث أثر فى خدها .

٢ ــ البيت فى الأغانى برواية (لئن أثرتْ بالمسك .... لقد أودَعَتْ قلبى من الحزن أسطرا) فلا داعى للحزن هنا ولعله تحريفٌ عن كلمة (الحب) .

٣ ــ " المملوك " هو الجارية والمالك هو الخليفة المتوكل فقد أصبح مملوكا لجاريته المملوكة له ومطيعا لها .

٤ ــ البيت فى العقد (.... فى السرائر جَعفر .... من صَوب الغَمامة جَعْفرا) ورواية الأغانى هنا أنسب وقد نقل عنها السيوطى فى المستطرف ، وبرواية :

[ويا مَن لعيْنى من رأى مثلَ جعْفر سقَى الله صَوْبَ المسْكراتِ لجعفرَا]

فى المحاسن والأضداد / ٢٥١ .

---

(١١) قالتْ فضلٌ مُجيزةً بيتاً : (طويل)

١- فو الله ما نْدرى: أتدْرِى بمَا جَنَتَ على قلْبه ، أم أهلكتْهُ ولا تَدْرِى

التخريج :

البيت برواية محمد بن خلف بن المزربان فى الأغانى ١٩/ ٣٠٥ ، وبرواية أحمد بن أبى طاهر ، قال : ألقى بعض أصحابنا على فضل الشاعرة :

وُمُسْتَفْتحٍ بابَ البَلاء بنظرةٍ تزوَّدَ منها قلبُه حسْرةَ الدهْرِ

فقالت مسرعة هذا البيت .

الشرح :

ومعنى الأول : رب فاتح باب البلاء بنظرة منه فتزود منها قلب العاشق حسرة إلى آخر العمر .

فردت عليه فضل بقولها : فو الله ما ندرى ، أتدرى فى بما جنته على قلبه ، أم أهلكته بنظرتها إليه وهى لا تدرى .

---

(١٢) وقالتْ فضلُ تُنْشِدُ المتوكّل : (سريع)

١- سُلافةٌ كالقَمر البَاهِر فى قَدَحٍ كالكَوْكَبِ الزَّاهِرِ

٢- يديرُها خَشْف كبدْرِ الدُّجَى فوقَ قَضِيبٍ أهْيَفٍ نَاضِرِ

٣- علَى فَتًى أروعَ مِنْ هَاشِمٍ مثلَ الحُسَام المرْهَفِ البَاتِرِ

التخريج :

الأبيات بلا سند ولا خبر فى الأغانى ١٩/ ٢١١ ، وبرواية أحمد بن أبى فنن فى الإماء الشواعر للأصفهانى أيضا / ٦٣ .

الشرح :

١ ــ سلافة الخمر وسلافتها أول ما يعصر منها والسلافة من الخمر أخلصها وأفضلها (اللسان سلف ٣/ ٢٠٦٩) . تريد وصْفَ الخَمْرِ الخَالص الذى يشبه القمر فى ضوئه ونقائه وقد وضَع فى قَدَح مثل الكوْكب فى شَفَافيته .

٢ ــ خَشْف (مثلثه) ولد الظبى أول ما يولد (القاموس الخشف ١٠٣٩) . أى يدير قَدَحَ الخمْرِ ولد صغير جميل مثل ولد الظبْية ، ناضر مثل القضيب فى قوامه.

٣ ــ يدير هذا القَدح غلامٌ جميل على فتًى من بنى هاشم أروعَ ماجد ذى قد كالحُسام المرهَف البَاتِرِ .

(١٣) أجازتْ فضلٌ قولَ سَعيد بن حُميد : (منسرح)

من لمحبّ أحــبَّ فــى صِغَـرِهْ . . . . . .

بقولها : . . . . . فصَــار أحدوثــةً علــى كِــبَرِهْ

فقال :

مــن نظَــر شفَّــــه وأرَّقَــــهُ . . . . . .

فقالت : . . . . . فكانَ مبدا هواهُ مــنْ نظَــــرِه

لولا الأَمانى لمَــات مــن كَمَــدٍ مرُّ الليــالى يزيــدُ فــى فكَــرِهْ

ليــسَ لــه مسْــعد يُسَــاعده بالليلِ فى طولِــه وفــى قصَــرِه

الجسمُ يُبْلــىٰ فــلا حِــراك بــهِ والروحُ فيمــا أرىٰ علــى أثَــرِه

التخريج :

الأبيات بخبر برواية أبى الحسين أحمد بن على التوزى فى مصــارع العشاق ١/ ٤٧٧ ــ ٤٧٨ وبرواية أخرى عن سعيد بن حميد فــى الأغــانى ١٩/ ٨٨ وعنه نقل ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٤ ، وبروايــة سعيد بن حميد فى الإماء الشواعر للأصفهانى / ٦٥ ، ٦٦ وكذلك فى نساء الخلفاء / ٨٨ ومؤدى الخبر أن سَعيد بن حميد قال لفضل أجيزى [من لمحب أحــب فى صغره] فأجابته بالعجز ثم قال : من نظَر .... فأجابتْ بعجزِه أيضــا ثــم شغلت هنيهة ثم قالت البيتين التاليين : فى رواية مصارع العشاق أن إنســانا استأذنها .... الخ ... ونسب إليها عجز البيت الأول . وثلاثة الأبيات التاليــة كاملة والخبر والأشطر الأربعة والأبيات الثلاثة فى الإماء الشواعــر لأبــى الفرج الأصفهانى ٦٥ ــ ٦٦

الشرح :

١ ــ البيت بشطريْه : معناه : ما أعجبَ من أحبّ منــذُ صغَــره ، فيصـير أُحْدوثةً عندَ الكبر . والأحدوثة بمعنى الأعجوبة ، يقــال قــد صــار فــلان أحدوثة . اللسان (حدث ٢/ ٧٩٧).

٢ ــ أى لقد أحب هذا الإنسان بسبَب نظرة منه إلى من أحب وشفه من شفــه الحزن والحب يشفه شفا وشفوفا ، لذع قلبه وأنحله وقيل أذهب عقله . اللسان (شفف ٤/ ٢٢٩٠)

٣ ــ الكَمد هَمٌّ وحُزن لا يستطاع إمضاؤه وقيــل الحــزن المكتــوم اللســان (كمد ٣٩٢٨/٥)

أى لو لا تعلله بالآمال لماتَ من الحزَن والهم المكتوم لأن مر الليالى تزيد من أفكاره ووساوسه . والبيت فى مصَــارع العشــاق بروايــة [مــر الليــالى تزيد فى ذكره] ، وفى فوات الوفيات برواية (.... لبات من كمد) وأظنــه تحريفا لمات .

٤ ــ ليس لهذا العشق ما يُسعده فى ليلهِ طولا وقصَرا والبيت فــى الأغــانى [ليس له مسعد يساعده] . ورواية مصارع العشاق (فيسعده) أفضل لبلاغتها .

٥ ــ هذا البيت انفرد به الأصفهانى فى الإماء الشواعر . ومعنــاه أن هــذا العاشِق المسكين يموتُ ، أو يبلى جسمه ، ثم تولى الروح على أثر الجســم . أى يقضى هلاكا وحزنا على صاحبه .

(١٤) قالتْ فضلُ على لسَان قَبيحة حينما أغضبَها المتوكِّل : (بسيط)

١- لأكتمنَّ الذى فى القلْب من حُرَقٍ حتَّى أموتَ ولم يعلمْ بــهِ النــاسُ

٢- ولا يقالُ شكَا من كــانَ يعشَقُــه إن الشكاةَ لمن تهوَى هى اليَــاسُ

٣- ولا أبــوحُ بشــئٍ كنــتُ أكتمُــه عند الجلوسِ إذا ما دارَت الكــاسُ

التخريج :

الأبيات الثلاثة فى خــبر طويــل رواه علــى بــن الجــهم فــى الأغــانى (دار الكتب) ١٠/٢١٤ ــ ٢١٥

هذا الخبر مؤداه أن المتوكل كلم قبيحة جارية فأجابته بما اغضبه ، فرماها بمخدة فأصابت عينها فأثرت فيها ، فتأوهت وبكت ، فخرج المتوكــل وحــم مــن الغضب فبصر بعلى بن الجهم فأمره أن يقول فيعلته هذه شيئا ، فقال :

تنكــرَ حــالَ عِلّــتِىَ الطبيــبُ وقالَ أرىٰ بجســمكَ مــا يريــبُ

ثمانية أبيات فى ديوانه ص ١٠٦ ــ ١٠٧ فقال له المتوكل : أحسنت وحياتى .

ثم أمرت قبيحة فضل الشاعرة أن تقول عنْهاشعرًا فقالت هذه الأبيات الثلاثة فلما سمعَها المتوكل قال : أحسنْتِ يا فضلُ ، وأمر لها بعشرينَ ألفِ درهم ، ودخــل إلى قبيحة فترضاها .

الشرح :

١ ــ أى لأكتمن ما فى قلبى من حُبّ للخليفة حتى أموت .

٢ ــ ولن أشكوَ من هويت فشكواهُ هو اليأس بعينه .

٣ ــ ولن أبوحَ بشئٍ من حُبّى فى مجالس الشراب .

---

(١٥) كتبتْ فضلُ الشاعرةَ إلى سَعيد بْن حُميد : (وافر)

١- بثثتُ هواكَ فى بدَنــى ورُوحــى فــألّفَ فيــهما طمَعًــا بيــاسِ

التخريج :

البيت برواية محمد بن خلف عن أبى الفضل المروزى فى الأغانى١٩/٢١١ البيت لفضل كتبته إلى سعيد فى رقعة فأجابها فى ذات الرقعة : بقوله :

كفانَا الله شرَّ اليأسِ إنّى لبغْض اليأسِ أبغضُ كلّ آسِى

الشرح :

ومعنى بيت فضل أن حب سعيد قد ملأ عليها كل روحها وجسمها فهى بين طمع فى حبه ويأس منه .

فرد عليها قائلا أبعد الله عنا شر اليأس فإنه يكرهه حتى لقد بلغ من كرهه إياه وأن صار يبغض الأساة والأطباء الذين يعالجون هذا الداء .

---

(١٦) كتبتْ فضلٌ إلى سَعيد بن حُميد تترضَّاهُ :(مجزوء الكامل)

١- يا منْ أطلتُ تفرّسِى فى وجْهه وتنفّسِى

٢- أفديكَ منْ متدلّلٍ يزْهَى بقتْل الأنفُسِ

٣- هبْنى أسأتُ ، وما أسأْ تُ ، بلَى أُقِرّ أنَا المُسِى

٤- أحْلفتْنِى ألاّ أسَا رِقَ نظرةً فى مجْلسِى

٥- فنظرتُ نظْرةَ مخْطئٍ أتبعتُها بتفرّسِى

٦- ونسيتُ أنى قدْ حلفْ تُ فمَا عقوبةُ منْ نَسِى

٧- يا مَنْ حكاهُ الياسَمي نُ وطيبُ رِيح النرْجِسِ

٨- اغفرْ لصبّكَ ما جنَا هُ منَ اللحاظِ الخُلّسِ

التخريج :

الأبيات الستة الأول فى الأغانى ١٩/ ١٦٦ ــ ١٦٧ فى خبر طويل .

مؤدّىٰ الخبر أن سَعيد بن حميد مرض فعادته فضل وحملت إليه هدايا كثيرة وجلس عريب وفضل وسعيد ، ودخل عليهم بنان وهو شاب طرير فأقبلت عليه بحديثها ونظرها ، فغضب سعيد ، وجعل يؤنبها فكتبت إليه هذه الأبيات تترضاه ، فرضى ، وقبل رأسها ، والخبر مختصرا والأبيات الستة فى المحاسن والمساوئ للجاحظ / ١٣٢ ، والخبر برواية أخرى وبزيادة ٧ ، ٨ فى الإماء الشواعر للأصفهانى أيضا / ٥٤ ــ ٥٥ .

الشرح :

١ ــ الأبيات الأول والثانى والثالث خطاب لبنان بن عمرو ، تقول : لقد أطلت النظر والتنفس فى وجهك .

٢ ــ نفسى فداؤك من رجل ذى تدلل وتثاقل يزهو بقتل الأنفس المحبة له .

٣ ــ أى ما أسأت ولكنى أقر أننى المسئ وقد خففت الهمزة من كلمة المسئ لتتلاءم مع حركة الروى .

٤ ــ لقد حلفت ألا أنظر إلى غيرك فى مجلس ما .

٥ ــ فنظرت خطأ إلى بنان بن عمرو متفرسه فيه .

٦ ــ ونسيت أنى قد حلفت فما عقوبة من نسى ؟ وخففت فتحة الباء فى الفعل نسى لملاءمة حركة الروى . فلما سَمع سعيد هذه الأبيات قام فقبل رأسها وقال : لا عقوبة عليه ، بل نحتمل هفْوتهِ ، ونتَجافى عن إسَاءته . الأغانى ١٩/ ١٦٨

٧ ــ أى إن رائحته تُضَاهِى رائحةَ الياسمين والنرْجس الطيبة .

٨ ــ الصب : العاشق (اللسان صبب ٤/ ٢٣٨٧١٤) ، فهى تطلب السماح لها منه بسبب النظرات المختلسة .

---

(١٧) قالتْ لعليّ بْن الجَهْم وقد نظَر إليها نظرةً اسْترابتْ بها:(رجز)

١- يا ربَّ رامٍ حَسَن تعرّضُهْ يرْمى ولا يشعرُ أنى غرَضُهْ

التخريج :

البيت برواية محمد بن خلف فى بدائع البدائه / ٤١ وفى ديوانه ١٥٣ وفى

الأغانى (ساسى) ٢١ / ١١٧ وفى طبعة بيروت ١٩/ ٣٠٥ ــ ٣٠٦

والخبر برواية محمد بن خلف يقول على بن الجهم : كنت يوما عند فضل الشاعرة فلحظتها لحظة رابتها ، فقالت البيت ، فقلتُ :

أى فتًى لحظُكِ ليسَ بُمْرضُهْ وأىّ عهْد مُحْكَم لا ينقُضُهْ ؟

فضحكت وقالت : خذ فى غير هذا الحديث وبيت على بن الجهم برواية (... وأى عقد محكم ..)

الشرح :

١ ــ تقصد بالرامى : الشاعر على بن الجهم فهو يرمى بسهام العين فقد تعرض لها على غرة وهى لا تدرى أنها المقصودة .

وبيت فضل برواية (.... يرمى ولا أشعر أنى عرضه) فى بدائع البدائه وقد فضلت رواية الأغانى لأنها الأصل وعنها نقل ابن ظافر الأزدى فى كتابه .

---

(١٨) وقالتْ على لسَان سَعيد : (منسرح)

١- ما كنتُ أيامَ كنتِ راضيَةً عنى بذاكَ الرضا بمغْتبَطِ

٢- علْما بأنَّ الرضَا سيتبعُهُ منكَ التجنّى ، وكثرةُ السَّخَطِ

٣- فكلّ مَا سَاءنَى فعَنْ خلُقٍ منكِ ، وما سَرّنى فعَنْ غَلَطِ

التخريج :

الأبيات فى زهر الآداب للحصرى القيروانى ٢/ ١٠٣٤ برواية سعيد بن حميد ، يقول : قال سعيد بن حميد ويروى أن الأبيات قالتها فضل على لسان صاحبها سعيد .

الشرح :

١ ــ أى لم أكنْ مسرورًا مغتبطاً برضاكَ عنى .

٢ ــ لأننى أعلم أن هذا الرضَا سيتبعهُ التجنىّ منكَ والسخْط على .

٣ ــ فما ساءنى منك ومن أفعالكَ فهو طيب ، وربما كان ما سرّنى منك عن خَطأ وسوءِ نية .

---

(١٩) جَاء غلامُ سَعيد برقْعةٍ عن فضْلِ الشاعرة فدفعَها إليه ، فقرأَها فإذَا فيها مكتُوب : (بسيط)

١- نفْسى فداؤُك طالَ العهْد واتصلَتْ ... منكَ المواعيدُ واللّيّانُ والخُلُفُ

٢- والله يعلمُ أنى فيكَ ساهرةٌ ... ودمعُ عينىَ منها بارقٌ يكِفُ

٣- فإن تكنْ خنتَ عهْدِى [ذا] فوا أسَفا ... وقلّ منىَ فيكَ الهمُّ والأسَفُ

٤- وإن تبدلتَ منّى غَادرًا خلَفا ... فليس منكَ وربِّ العرْش لى خَلَفُ

التخريج :

الخبر برواية ميمون بن إبراهيم فى الإماء الشواعر للأصفهانى / ٦٨ ، ٦٩

الشرح :

١ ــ نفسى فداؤك ، دعاء الليان من الفعل لوى يلوى ويقصد به المماطلة والخلف : أى إخلاف مواعيدك .

٢ ــ دمع العين يكف وكفا ووكيفا ، وسَحابة وكُوف إذا كانت تَسيل قليلاً قليلا (اللسان وكف ٦/ ٤٩٠٨) .

٣ ــ هذا البيت كما هو فى الإماء الشواعر سَاقط من صَدْره سبب خفيف (ذا) أو لعل الرواية الصحيحة (فان تكن خنتَ عهدى فيكَ وَا أسَفا ... وقلّ منى فيك الهمُّ والأسَفْ) .

٤ ــ غادرٌ ربما يكون اسم جارية غيرها ، فقد كان لجدة المهدى جارية بهذا الاسم أى إن كنت قد استبدلتَ بنا معشوقةً أخرى فإنى لم أستبدلْ بك أحدا غيرك .

(٢٠) كتبت فضلٌ إلى بنَان : (سريع)

١- يـا نفـسُ صَـبْرًا إنـها مِيتَـةٌ يجرعُـها الكـاذِب والصَّـادقُ

٢- ظَـنَّ بنَـان أننّـِي خُنْتُـه رُوحى إذنْ مـنْ بدنَـى طَـالِقُ

التخريج :

البيتان بلا خبر فى المنتظم لابن الجوزى ٥/ ٧٠٦ وبخبر موجز فى ذيل الأمالى والنوادر للقالى / ٨٦ وفى الأغانى ١٩/ ٢١٢

الخبر برواية على بن يحيى فى ذيل الأمالى وبرواية على بن المنجّم فى الأغانى ومؤداه أن حدثت جفوةٌ بين فضْل وبنان عاشقها ثم عاتبته فقبل ، ودار النبيذ فدعَتْ بالدواةِ وكتبتْ هذيْن البيتيْن .

الشرح :

١ ــ أى هى تصبرُ نفسَها بتمنّى الموت حيث يأتى فيعم الصَّادق والكاذب .

٢ ــ هذا البيت يتضمن موجزَ القصّة . فقد ظن بنانٌ أن فضلاً هجرتْه خيانةً فهى تدعو على نفسِها بالموت إن كان قد حدَث ذلكَ .

---

(٢١) قالتْ فضلٌ على لسان الخليفةِ المعْتمِد فى جَاريةٍ أخرى تَعلّقَ بها : (مجزوء الكامل)

١- علَـم الجمَـال تركتِنِـى فى الحُـبّ أشـهرَ مـنْ علَـمْ

٢- ونَصيْتِـنى يـا مُنْيتِـى غـرَضَ المظنَّـة والتُّـهَمْ

٣- فـارقْتِنَى بعـدَ الدنـوّ وفصـرْتِ عنـْدِى كـالحُلُمْ

٤- فلـو أنَّ نفسِـىَ فـارقَتْ جسْـمى لفقـدِكِ لـمْ تُلَـمْ

٥- ما كـانَ ضَـرَّكِ لـو وصَلْـ ـتِ ، فخفّ عـنْ قلْبـى الألَـمْ

٦- برسالة تهدينها فى زَوْرة تحت الظُّلَمْ

٧- أو لا فَطِيفِى فى المنَا م فلا أقلّ منَ اللَّمَمْ

٨- صلةُ المحِبِّ حبيبَه اللهُ يعلمُه كَرَمْ

التخريج :

الأبيات الثمانية فى خبر برواية أبى عبد الله أحمد بن حمدون فى الأغانى ١٩/ ٣٠٢ ــ ٣٠٣ ومرة أخرى برواية محمد بن خلف عن أحمد بن أبى طاهر فى الأغانى ١٩/ ٣٠٥ ثلاثة أبيات فقط ٢، ٨ وبيت زائد هو :

وأبحتنى يا سَيِّدى سَقَماً يجلّ علَى السَّقَمْ

أى على لسان الجارية للخليفة ، ونقل هذه الرواية ابن ظافر الأزدى فى بدائع البدايه / ١٣٨ مع زيادة فى السند وبرواية ..... يزيد على ..... وبلا سند فى الإماء الشواعر للأصفهانى / ٦٠ .

الشرح :

١ ــ علَم الأولى المنادى المنصوب بمعناه المعروف وعلم الثانية بمعنى الجبل .

٢ ــ البيت فى الأغانى ١٩/ ٣٠٥ على لسان الجارية للخليفة برواية :

وتركتنِى غرَضًا ــ فديـ ــتُكِ ــ للعواذِل والتُّهَمْ

٣ ــ الدنو : القرب من دنا يدنو دنوا .

٤ ــ أى فلو أننى مت لموتك فلا لوم على ولا حرج .

٥ ــ أى يطلب منها الوصَال ليخف ألم قلبه .

٦ ــ زوْرة أى زيارة .

٧ ــ اللّمَمُ من الذنوب صغارُها .

٨ ــ أى إن وصال الحبيبين يعد كرمًا من المُحب .

(٢٢) وقالتْ فضلٌ ترد على أحْمَد بن أبى طاهر : (مجزوء الكامل)

١- وأبحتنَى يا سَيّدى سَقَماً يزيدُ على السَّقَمْ

٢- وتركتنَى غرَضًا ـ فديـ ـتكَ ـ للعَواذِلِ والتُّهَمْ

التخريج :

البيتان فى خبر برواية أحمد بن أبى طاهر فى بدائع البدائه ص ١٣٨ ، وكذلك فى الإماء الشواعر للأصفهانى /٦٠ برواية (... وتركتنى .. للعواذل والتهم)

الشرح :

١ ـ أى لقد تسببت فى مَرَضى مرضًا شديداً ، وتركتنى عُرْضَة للّوْم اللاّئمينَ وعذلهم وتهَمهم . و" فديتك " جملة اعتراضية دعائية .

---

(٢٣) وكتبت فضل للمتوكل : (مجزوء الرمل)

١- قد بَدا شبهُكَ يا مَوْ لايَ يحدُو بالظَّلامِ

٢- قُمْ بنَا نقْضِ لُبانَا تِ التَزَامٍ والتِئامِ

٣- قبْلَ أن تفضَحنَا عَوْ دَةُ أرواحِ النيامِ

التخريج :

الأبيات الثلاثة لفضل فى خبر برواية على بن يحيى المنجم فى الأغانى ٩/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨ وبغير خبر فى نساء الخلفاء لابن الساعى ٩٠ ـ ٩١ نقلا عن الورقة للعاملى ، وكما ذكر ابن الساعى ، وأنكر عليه ذلك محقق الكتاب .

والخبر مُؤَدّاهُ أنه كان بين المتوكل وفضل موعد ، فشرب المتوكل حتى سكر فنام فجعلت فضل تحرّكه فلم ينتبه فكتبتْ على رقعة هذه الأبيات ووضعتْها على مخدّته .

الشرح :

١ ــ أى قد بدا شبيهُك لى يحدو فى ظلْمة الليل .

٢ ــ قم نقضِ حق الموْعد ونلتزم به لثْماً وغير ذلك من أغْراض . اللبانات جمع لبانة وهى ما يطلُبه المرء من رغبة وشهوة وهذا البيت الثانى فى نساء الخلفاء برواية :

فانتبه نقْضِ لبا نَاتِ اغْتبَاقٍ والْتِثَام

وقد فضلت رواية الأغانى لأنها أقدم .

اللبانة الحاجة من غير فاقة ولكن من همة ، يقال : قضى فلان لبانته والجمع لبان اللسان (لبن ٥/ ٣٩٩٢) . وفى المعجم الوسيط (لبن ٢/ ٨١٤) .

٣ ــ أى قبل أن يصحو النيام أو قبل طلوع النهار .

---

(٢٤) وقالتْ فضلُ : (بسيط)

١- قالوا لنا إن فى القَاطول مشْتَانا ونحنُ نأملُ صتَع الله مولاَنا

٢- والناسُ يأتمرونَ الغيبَ بينهُمْ والله فى كلّ يومٍ مُحْدَث شَانَا

٣- رَبٌّ يرىٰ فوقَ ملْك العالمينَ لهُ ملْكاً، وفوقَ ذوِى السلْطان سُلْطَانا

التخريج :

الأبيات فى خبر برواية على بن يحيى المنجم حيث أمر المتوكل أن تضرب مضاربة على القاطول ليقيم شتوية عليه ... فقالتْ فضلُ هذه الأبيات الثلاثة فى الإماء الشواعر لأبى الفرج الأصفهانى / ٦٧ .

الشرح :

١ ــ القاطول : أى إنه لأمر عجيب أن يكون مشْتَانا على نهْر القَاطول فربما كان هذا من تقديره الله وصنعه العجيب ....

٢ ــ فالله له كل يوم شأن جديد [كل يوم هو فى شأن] .

٣ ــ وملْك الله فوق كل الأملاك ، وسلطانه فوقَ كل السلاطين .

(٢٥) أنشدت فضل على بن الحسن قائلة : (بسيط)

١- قد تَغَنَّى لى بنَانٌ (اِسْمعى أو خَبِّرينَا)
٢- وشربْتُ الراح فارتَحْ ت وأبدَتْ لى شجُونَا
٣- ثم أظهَرْت لجُلاّ سِى من السيْر مصُونَا
٤- قُلْ لمولاىَ ولا تخ شَى ، وقُلْ قولاً مُبينا
٥- رُبَّ صَوْت حسَن قد ألبَسَ الرأسَ قرُونَا
٦- أنْتَ قَوَّادٌ نبيلٌ يا أميرَ المُؤْمنينَا

التخريج :

الأبيات فى خبر برواية على بن الحسن فى الإماء الشواعر للأصفهانى / ٥٧ ــ ٥٨ ، وقد قال على بن الجهم فى ذلك :

كلّمَا غَنَّى بنَانٌ اِسمعى أو خَبِّرينَا

إلى أن تقول :

رُبَّ صَوْتٍ حسَنٍ ينبتُ فى الرأسِ قرُونَا

ديوان على بن الجهم / ١٨٥ ، وقد ذكر هذا النص فى باب التضمين ابن رشيق القيروانى فى العمدة ٢/ ٨٧ .

---

(٢٦) قالت فضل تبكى المتوكل صبيحة قتله : (بسيط)

١- إن الزمانَ بذَحْل كانَ يطلبُنا ما كانَ أغفلَه عنَّا وأسْهَانا
٢- ما لِى وللدهر ؟ قد أصبحْتُ همتَه ما لى وللدهْر؟ ما للدهْر؟ لا كَانَا

التخريج :

البيتان برواية الحسن بن على فى الأغانى ١٩/ ٣١٠ ، وبرواية عبيد بن

محمد فى الإماء الشواعر لأبى الفرج الأصفهانى / ٦٦ .

ملخص الخبر أن عبيد بن محمد قال لفضل الشاعرة : ماذا نزل بكم البارحة ؟ قال : وذلك صبيحة قتل المنتصر المتوكل . فقالت وهى تبكى (البيتين) .

الشرح :

١ ــ الذَّحْل : الثأْر ، وقيل العداوة والحقْد ، وهو الِتّرة ، والذحْل الوِتْر ، والجمع أذْحال وذُحول . اللسان (ذحل ٣/ ١٤٩٠) ، وفى الإماء الشواعر برواية (.... ما كان أغفله عنا .....) .

٢ ــ قد أصبحتُ همته أى قد أصبحتُ همّ الدهْر ومشغلته ، وقد كانَ بالأمس غافلا عنا وسَاهيا ، ما لى والدهر تكررَتْ مرتيْن دليل على التعجّب وقولها ما للدهر لا كانا أى لا كان الدهر دعاء عليه .

---

(٢٧) طَلَبَ المتوكلُ من فضْل الشاعرة أن تُنْشِدَه شيئًا من شعرِها فأنشدتْهُ : (سريع)

١- استقبلَ الملْكَ إمامُ الهُدَىٰ عامَ ثَلاثٍ وثَلاثِينَا

٢- خلافةٌ أفضَتْ إلى جعْفَر وهو ابْن سَبْع بعدَ عشْرِينَا

٣- إنا لنرجُو با إمامَ الهُدَى أن تملكَ النَاسَ ثمَانينَا

٤- لا قدَّسَ اللهُ أمْرَأً لم يقُلْ عندَ دُعائى لكَ " آمينَا "

التخريج :

الخبر برواية محمد بن خلف عن أبى العيناء أن فضل الشاعرة دخلت على المتوكل يوم أهديت إليه فسألها أشاعرة أنت ، فقالت : كذا زعم من باعنى واشترانى فضحك ثم استنشدها فأنشدته هذه الأبيات ... فى الأغانى ط بيروت ج ١٩/ ٣٠١ وعنه نقل ابن الساعى فى نساء الخلفاء ٨٦ ، ٨٧ وعن ابن الساعى نقل عمر رضا

كحالة فى أعلام النساء ٤/ ١٧٢ وبنفس الرواية والسند نقل السيوطى عن الأغانى فى تاريخ الخلفاء ٣٥٣ وفى كتابه الثانى المستظرف فى أخبار الجوارى ٥١ ــ ٥٢ وبرواية صاحب الأغانى فى رى الظما لابن الجوزى ــ أو الإماء الشواعر لأبى الفرج تحقيق د/ نورى القيسى ٥٩ وفى المنتظم لابن الجوزى ٥/ ٧٠٦ الثالث برواية ، ومع اختصار الرواية نقل ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات ٢/ ٢٥٥ ، والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٣١٠ .

الشرح :

١ ــ " إمام الهدى " المراد به المتوكل وقد استقبل الملك أى بويع بالخلافة فى ذى الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائتين ، انظر : تاريخ الخلفاء للسيوطى ٣٤٦ وتاريخ الطبرى ٩/ ١٥٤ والكامل فى التاريخ لابن الأثير ٧/ ٣٣ ــ ٣٤ . وعام ثلاثة وثلاثين فى الشطر الثانى يراد بها سنة ثلاث وثلاثين ومائتين هجرية وقد حلت هذه السنة بعد أيام من خلافة المتوكل فبعد شهر ذى الحجة يأتى شهر محرّم أول شهور السنة الجديدة وقولها عامَ ثلاث حذفتْ تاء التأنيث فى العدد ضرورة شعرية بسبب الوزن أو على تضمين العام معنى السنة .

٢ ــ " جَعْفر " هو المتوكل حيث إن اسمه المتوكل على الله : جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد (تاريخ الخلفاء ٣٤٦) .

" وهو ابْنُ سَبع بعد عشرين " المراد سنة سبع وعشرون سنة ويذكر ابن الأثير فى تاريخة الكامل " أن عمر المتوكل يوم بويع كان ستا وعشرين سنة " ٧/ ٣٤ ولعل الشاعرة أرادات وهو ابن سبع وعشرين بعد بداية العام الهجرى الجديد المحرم سنة ٢٣٣ هـ الذى حل بعد أيام قلائل من بيعته .

٣ ــ " أن تملك الناسَ ثمانين " أى أن تظل فى الملك وحكم الناس حتى تبلغ سن الثمانين من العمر .

٤ ــ المراد بالبيت كله دعاء على من لا يؤمن على دعائى لك بطول العمر أو طول مدة الخلافة .

(٢٨) وقالت فضل تهجو الخنساء جارية هشام المكفوف :(خفيف)

١- إن خنساءَ ــ لا جعلتُ فِداهَــا ــ اشْتَرَاها الكَسَّــارُ مــنْ مَوْلاَهــا

٢- ولا نكْهَــةٌ .. يقــولُ مُحَاذِيــــ ــــها أهــذا حديثُــها أم فُسَــاها

التخريج :

البيتان لفضل من خبر طويل برواية محمد بن خلف المَرْزُبان فى الأغــانى ١٩/ ٣٠٩ .

الشرح :

١ ــ الكسار : لعله اسم مشتريها ومولاها ، وكانت خنساءُ جاريةً لهشام المكفــوف وكانت شاعرةً . أى إن خنساء جارية مَبيعة ، ثم تدعو عليــها بــألا تكــون هــى فداء لها .

٢ ــ النَّكْهَة : ريحُ الفَمِ ، ونكِهَهُ نكْهاً ونكهَهُ واستنْكَهَهُ : شَمَّ رائحةَ فمِــه ، والاســم النكْهة . اللسان (نكه ٦/ ٤٥٤٤) .

مُحَاذيها : من الفعْل (حاذَاه محاذَاة وحذَاء ، صار بحذائِه ووَازَاهُ) المعجم الوســيط (حذا ١/ ١٦٣) ، والمحيط فى اللغة للصاحب بن عباد ٣/ ٣٩٢ .

أى إن خنساءَ ذاتَ رائحةِ فمٍ نتنة حتى إن من يجْلس بحذائِها ويشمُّ رائحــة فمِها يقول : أهذه رائحة فم أم فُساء ؟

ثبت بالمصادر والمراجع

١ ــ أخبار النساء ــ لابن قيم الجوزية ــ تحقيق نزار رضا ــ بيروت ــ لبنان ١٩٧٨ م .

٢ ــ الأعلام ــ لخير الدين الزركلى ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان ١٩٨٤ م .

٣ ــ أعلام النساء فى عالمى العرب الإسلام ــ تأليف / عمرو رضا كحالة ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٠ .

٤ ــ الأغانى ــ لأبى الفرج الأصفهانى ــ تحقيق / عبد الكريم العزباوى ــ طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ــ ١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠ م .

٥ ــ الإماء الشواعر ــ لأبى الفرج الأصفهانى ــ تحقيق / د . نورى حمودى القيسى و د. يونس أحمد السامرائى ــ مكتبة النهضة العربية ــ بيروت ــ لبنان ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م .

٦ ــ بدائع البدائه ــ لعلى بن ظافر الأزدى ــ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ــ كتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ١٩٧٠ م .

٧ ــ البداية والنهاية لابن كثير ــ مكتبة المعارف ــ بيروت ــ لبنان ١٩٦٦ م .

٨ ــ بلاغات النساء ــ لأحمد بن أبى طاهر طيفور ــ نشرة دار الحداثة ــ بيروت ــ لبنان ١٩٨٧ م .

٩ ــ بين الخلفاء والخلعاء فى العصر العباسى ــ د . صلاح الدين المنجد ــ دار الكتاب الجديد ــ بيروت ــ لبنان ١٩٨٠ م .

١٠ ــ تاريخ الأدب العربى فى الأعصر العباسية ــ تأليف / عمر فروخ ــ طبعة بيروت ــ لبنان ١٩٦٨.

١١ ــ تاريخ الخلفاء ــ لجلال الدين السيوطى ــ بتحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ــ مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥٢ م .

١٢ ــ تاريخ الرسل والملوك ــ لمحمد بن جرير الطبرى ــ بتحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ــ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .
١٣ ــ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٨٥ م .
١٤ ــ الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب فواز العاملى ــ المطبعة الأميرية ببولاق ــ مصر ١٣١٢ هـ .
١٥ ــ ديوان أبى العيناء ونوادره ــ جمع وتحقيق / أنطوان القوال ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ١٩٩٤ .
١٦ ــ ديوان البحترى ــ تحقيق / حسن كامل الصيرفى ــ دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م .
١٧ ــ ديوان على بن الجهم ــ تحقيق / خليل مردم ــ طبعة بيروت ــ لبنان .
١٨ ــ ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ــ نشرة مكتبة القدسى بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .
١٩ ــ ديوان يزيد بن الطثرية ــ د . ناصر الرشيد ــ دار الوثبة ــ دمشق ــ بلا تاريخ .
٢٠ ــ ذيل الأمالى والنوادر ــ لأبى على القالى البغدادى ــ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م .
٢١ ــ زهر الآداب وثمر الألباب ــ للحصرى القيروانى ــ تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ــ طبعة مصر بالمكتبة التجارية الكبرى ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م .
٢٢ ــ شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام ــ جمعة ورتبه / بشير يموث ــ الطبعة الوطنية ــ بيروت ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م .
٢٣ ــ شاعرات العرب ــ جمع وتحقيق / عبد البديع صقر ــ طبعة بيروت ــ الكتب الإسلامى ١٩٦٧ م .

٢٤ ــ شعر سعيد بن حميد ضمن مجموع (شعراء عباسيون) ــ د . يونس أحمد السامرائى ــ مكتبة النهضة العربية ــ بيروت ــ لبنان ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م .
٢٥ ــ طبقات الشعراء ــ لابن المعتز ــ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م .
٢٦ ــ طرائف النساء ــ إعداد / د . مفيد قميمة ــ دار الفكر اللبنانى ــ بيروت ١٩٩٠ م .
٢٧ ــ العقد الفريد ــ لابن عبد ربه الأندلسى ــ شرح / أحمد أمين وآخرين ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٢ م .
٢٨ ــ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ــ تأليف / على أبى الحسن بن رشيق القيروانى ــ تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ــ النهضة المصرية ١٩٥١ م .
٢٩ ــ عيون الأخبار ــ لابن قتيبة الدينورى ــ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣م
٣٠ ــ فوات الوفيات ــ لابن شاكر الكبتى ــ تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ــ النهضة المصرية ١٩٥١ م .
٣١ ــ القاموس المحيط ــ للفيروز آبادى ــ طبعة القاهرة ١٩٣٣ م .
٣٢ ــ الكامل فى التاريخ ــ لأبى الحسن بن الأثير ــ دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
٣٣ ــ لسان العرب ــ لمحمد بن منظور المصرى ــ دار الكتب ــ وطبعة دار المعارف ــ بلا تاريخ .
٣٤ ــ المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ ــ تصوير القاهرة ١٣٢٤ هـ .
٣٥ ــ المحيط فى اللغة ــ للصاحب بن عباد ــ منشورات وزارة الثقافة والإعلام ــ بالجمهورية العراقية ١٩٨١ م .
٣٦ ــ المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها ــ لعبد الله عفيفى ــ طبعة المملكة العربية السعودية ــ المدينة المنورة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م .

٣٧ ــ مروج الذهب ــ لأبى الحسن بن على المسعودى ــ طبعة بيروت ــ دار الأندلس للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م .

٣٨ ــ المستطرف من أخبار الجوارى ــ لجلال الدين السيوطى ــ حققه / د . صلاح الدين المنجد ــ دار الكتاب الجديد ــ بيروت ــ لبنان ١٩٧٦ م .

٣٩ ــ مصارع العشاق ــ لأبى محمد جعفر بن الحسين السراج ــ ضبطه / أحمد يوسف نجاتى وأحمد مرسى مشالى ــ طبعة الأنجلو المصرية سنة ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م .

٤٠ ــ المعجم الوسيط ــ طبعة المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ــ استانبول ــ تركيا ١٩٧٣ م .

٤١ ــ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ــ لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ــ طبعة حيدر آباد ــ الهند ١٣٥٧ هـ .

٤٢ ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ــ لابن تغرى بردى ــ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م .

٤٣ ــ نساء الخلفاء المسمى " جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء ــ لابن الساعى ــ حققه / د . مصطفى جواد ــ طبعة دار المعارف ــ بمصر سنة ١٩٩٣ م .

٤٤ ــ كتاب الوافى بالوفيات ــ لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ــ تحقيق / جاكلين سوبله وعلى عمارة ــ دار نشر فرانز شتاينر بثيسبادن ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م .

٤٥ ــ كتاب الوزراء والكتاب ــ لأبى عبد الله محمد بن هبدوس الجهشيارى ــ حققه / مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى ــ طبعة الحلبى ١٤٠١ هـ = ١٩٨٠ م .

٤٦ ــ وفيات الأعيان ــ لابن خلكان ــ دار الثقافة ــ ببيروت ــ لبنان ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م .